

سيرة خاتم الأنبياء

صلى الله عليه وعلى آله وسلم

دراسة وتحليل

إعداد

محمد بدر الدين الحوئي

(طبعة منقحة ومزودة)

الطبعة الثالثة

1443 هـ - 2022 م

طبعة منقحة

رقم الإيداع: 200 / 1443 هـ

مركز الشهداء للأعمال الثقافية والفنية

جميع الحقوق محفوظة

مركز الشهداء
للأعمال الثقافية والفنية

المركز الرئيسي: اليمن - صعدة

للتواصل: 771766111 - 733100753

البريد الإلكتروني: com.gmail@center.shuhda

فرع صنعاء: الجراف - خط المطار

للتواصل: 771766222 - 714770577

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

برغم ما تملكه أمتنا اليوم من مقومات النهوض للتخلص من واقعها المهين، إلا أننا نجد أنها تزداد انغماسًا في الوحل يوميًا بعد يوم، وهذا ما يحتم علينا البحث عن حقيقة المشكلة وتشخيص الداء الذي ترك أمتنا طريقته الفراعنة تنهشها الذئاب، ويتلاعب بمصيرها الأوباش والأذئاب.

وبأدنى نظرة وتأمل في القرآن الكريم وفي سيرة خاتم الأنبياء «صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله» ندرك مكن الداء، حيث نرى البون الشاسع بين واقعنا اليوم وواقعنا بالأمس يوم كانت التوجيهات القرآنية هي التي تحكم الواقع وتسيره، والسيرة هي الترجمة العملية لتلك التوجيهات الربانية.

وبهذا ندرك أنه لا خلاص للأمة إلا بالعودة الصادقة إلى القرآن الكريم، واتباع أثر النبي العظيم، وتعزيز ارتباطنا به كقدوة وقيادة، ومعلم ومرتب، نخض بالمشروع القرآني حتى بلغ بواقع الأمة أعلى الذرى، وقهر الجبابرة، وأرغم أنوف القياصرة والأكاسرة، وبني للأمة كيانًا طاول السماء رفعة وشموعًا وعزة.

وبلا شك فإن جزءًا كبيرًا من التبعات يتحملها أولئك الذي كتبوا عن السيرة النبوية، وضمنوها الكثير من الأخطاء الفادحة، التي وصلت إلى حد التغيب للشخصية الحقيقية للنبي الأكرم، ولدوره الحقيقي، وأسلوبه المثالي في بناء كيان الإسلام العظيم، لقد حصروه في زاوية المسجد، حتى لم يعد أحد يتصور أن النبي كان يحمل السيف، ويتقن فن القتال، ويقف في وسط الميدان، ويجندل الأبطال، حتى قال أمير المؤمنين وبطل الإسلام الخالد: «كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه».

لهذا يجب أن نعيد النظر فيما أُرِخ وكُتب عن سيرة النبي الأعظم، وأن نستهدي بالقرآن وأعلام الهدى في الوصول إلى معرفة شخصية ودور ومنهجية الرسول الخاتم «صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله».

وفي هذا الكتاب جرت المحاولة قدر الإمكان لتصحيح بعض المفاهيم، ومناقشة بعض المسائل مما له ارتباط وتأثير في واقعنا اليوم، حتى وإن ظهر بعضها مخالفًا للرواية الرسمية الرائجة في معظم كتب السير والتاريخ.

الكتاب في حلتته الجديدة

وبعد نفاذ الطبعة الأولى وتزايد الطلب على الكتاب كان لا بُدَّ من إعادة طبعه مرة ثانية، وكانت هذه فرصة سانحة للتدقيق في بعض النصوص والمواضيع، وإخضاعها لمزيد من البحث، مستهدين بما طرحه السيد عبد الملك بدر الدين (حفظه الله) في العديد من خطابات المولد النبوي، إضافة إلى ما تمت مناقشته معه مباشرة، وهكذا تم مراجعة العديد من المصادر المعتمدة، لهذا حفلت هذه الطبعة بالكثير من الإضافة والتعديل والتنقيح حسب ما سمح به الوقت، راجين الله تعالى قبول هذا الجهد وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم بحق محمد وآله الطاهرين.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

يمثل رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم النموذج الإنساني الكامل الذي اجتمعت في شخصيته كل الصفات والخصائص والقيم الإنسانية والإلهية؛ فهو رجل العلم والفضل والعقل والكمال، ومثال الحكمة والوقار والجلال، عارف حكيم تقي شجاع حازم، أكمل الخلق وأفضلهم وأعظمهم أخلاقاً لا ترى في أعماله أي خلل أو ضعف، ولا في تصرفاته وسلوكه أي تشبث أو تناقض.

وقد اتسع قلبه لآلام الناس ومشكلاتهم؛ فجاهد في الله حق جهاده، ووقف بحزم وثبات وقوة في وجه القوى الجاهلية، الوثنية واليهودية، من أجل العدالة والحرية والمحبة والرحمة، ومن أجل مستقبل أفضل لجميع الناس.

ولأجل ذلك فقد جعله الله قدوة وأسوة للناس جميعاً، وفرض عليهم أن يقتدوا به وأن يتبعوه في كل شيء حتى في جزئيات أفعاله فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ولذلك أيضاً فقد حظيت شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك حياته وسيرته باهتمام التاريخ والمؤرخين والباحثين، وأُلِّفت حول شخصيته وسيرته العطرة مئات بل آلاف الكتب والدراسات، ولا نعلم سيرة رجل قد نُقحت وحُققَت ومُحصت بالحجم الذي تم لسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يكتف تاريخ الإسلام المدون بتسجيل الأحداث والمواقف العامة من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل سجل لنا تفاصيل حياته ودقائق تصرفاته، حتى الحركات واللفظات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والحوادث بدقة متناهية واستيعاب لا نظير له.

وبالرغم من كثرة ما كتب حول السيرة النبوية عرضاً وتحليلاً إلا أن المكتبة الإسلامية والمعاهد الثقافية ظلت تفتقر إلى كتاب ممنهج في السيرة والتاريخ يمكن الاعتماد عليه في تقديم صورة واضحة ونقية عن حياة وسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكل طلاب المعرفة.

ومن هنا فقد قمنا بوضع هذا الكتاب ضمن مواد المنهج الدراسي ليسد هذه الحاجة الماسة؛ وليكون متناً دراسياً يعتمد عليه الطالب والأستاذ في دراسة هذه المادة.

وقد اشتمل الكتاب على عرض تحليلي لسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ ولادته إلى أن اختاره الله إليه، والمراحل التي مر بها في صباه وشبابه، ومسيرة الدعوة إلى الله منذ أن بعثه الله في مكة إلى أن تكاملت حروبه وغزواته، وما يتصل بذلك من أحداث ومواقف وتحديات رافقت الدعوة، مع دراسة موضوعية لأهم جوانبها ومحاولة الاستفادة منها، وأخذ العبر.

وقد اعتمدنا في جميع ذلك على أوثق المصادر الإسلامية وفي مقدمتها كتاب الله وما رواه الأئمة الأطهار عليهم السلام مما يتعلق بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ على اعتبار أن أهل البيت أدري بما فيه. ولم نلتزم الترتيب الزمني للأحداث والوقائع التاريخية، وإنما قسمنا سيرته صلى الله عليه وآله وسلم العطرة إلى وحدات متجانسة إلى حد ما، وخصصنا لكل وحدة مساحة مناسبة في البحث.

واقترضنا على تناول وبيان بعض الوقائع المهمة التي تنطوي على قدر أكبر من الفائدة والعبرة، وأعرضنا عن ذكر الحوادث الجزئية، لكننا خصصنا بعد كل بحث مقطعاً خاصاً للمطالعة تناولنا فيه شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذاتية، وسيرته الأخلاقية؛ من أجل تكوين صورة واضحة عن صفاته صلى الله عليه وآله وسلم، وخصائصه، وعلاقته بربه، وطريقة تعامله مع أسرته والأمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) السيرة النبوية ومصادرها الأصلية

كلمة السيرة مشتقة من كلمة السَّير، والسَّيرُ يعني المشي والحركة، بينما السَّيرة تعني طريقة المشي والحركة والسلوك. وبعبارة أخرى: السيرة عبارة عن الأسلوب والنمط الذي يتبعه الإنسان في حياته وفي أعماله اليومية.

وعندما نبحث في السيرة النبوية فإننا نريد التعرف على الأسلوب والنمط الذي كان يتبعه النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم في أعماله اليومية؛ للوصول إلى أهدافه النبيلة، فمثلاً: كيف كان سلوكه؟ وكيف كانت أخلاقه وعلاقاته مع أصحابه وزوجاته ومجتمعه؟ وكيف كان يبلغ رسالته؟ وما هي الأحداث التي واجهها في طريق الدعوة إلى الله؟ وكيف كان يتعامل معها؟ وكيف كان يقود مجتمعه إدارياً وسياسياً واقتصادياً وتربوياً وتعليمياً؟ وغير ذلك.

إن الكشف عن جوانب شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما يرتبط بحياته ومواقفه وسلوكه وأوضاعه وطريقة تعامله مع الأحداث والتحديات والمستجدات وغير ذلك هو ما يراد بحثه عادة في السيرة النبوية.

ومن المعلوم أن السيرة العظيمة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد تعرضت للكثير من الافتراء والتشويه على أيدي الكثيرين من حكام ومندسين وغيرهم؛ حيث كانت لدى هؤلاء خطة خبيثة تستهدف النيل من شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته، وقد نُقِذت هذه الخطة عن طريق دسّ نصوص مختلفة ومزيفة في كتب السيرة والتاريخ تسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتنسب إليه ما لا يليق به.

ولذلك أصبح من الضروري جداً إذا أردنا أن نكون صورة واضحة ونقية عن حياة وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نعتمد على مصادر صحيحة، ومعايير وضوابط تكون قادرة على إعطائنا الصورة الحقيقية الأكثر نقاء وصفاء عن شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتكون قادرة أيضاً على إبعاد ذلك الجانب المصطنع والمزيف من النصوص عن محيطنا الفكري والعملية بصورة كاملة.

فما هي تلك المصادر التي ينبغي اعتمادها لاستخراج سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ وما هي تلك المعايير والضوابط التي يجب أن نعتمدها لتمييز النصوص الصحيحة من النصوص المزيفة؟ هناك عدة مصادر يمكننا أن نستخلص بالاعتماد عليها معالم شخصية النبي وتفاصيل حياته وسيرته وهي:

أولاً: القرآن الكريم

فإن القرآن الكريم أعطى صورة واضحة ورائعة عن شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته وخصائصه ومواقفه في كثير من السور والآيات، ويستطيع قارئ القرآن بالتدبر التام في الآيات التي نزلت في شأن رسول الله أن يحيط بالكثير من جوانب شخصيته وحياته منذ أن بعثه الله وإلى أن فارق هذه الدنيا.

فقد أشار القرآن إلى مكانة النبي ومنزلته وعظمته، وإلى صفاته وخصائصه: كالعصمة، والطهارة، والرأفة، والرحمة، والعطف، والشجاعة. وأشار القرآن إلى أخلاق النبي وصبره وثباته في مواقع التحدي، وإلى طريقة تبليغه للرسالة، وإلى مواقفه من عدم استجابة قومه لدعوته، وغير ذلك مما يرتبط بحياته وسيرته في كثير من الآيات والسور. فالرجوع إلى نفس القرآن واستخراج سيرة النبي وصفاته وأفعاله من خلال ما عرضته الآيات يُعتبر من أوثق وأصح الطرق والمصادر لدراسة شخصية النبي وتكوين صورة واضحة ونقية عن حياته وأخلاقه وعلاقاته ومواقفه وقيادته والتحديات التي واجهها في طريق الدعوة إلى الله.

ثانيًا: النصوص الواردة عن أهل البيت «عليهم السلام» التي عرضت سيرة وحياة رسول الله

فإن هذه النصوص تعتبر بعد القرآن أهم المصادر التي نأخذ منها خصائص ومميزات شخصية النبي وتفصيل حياته؛ على اعتبار أن أهل البيت عليهم السلام أدرى بما فيه، وليس لأحد كائنا من كان أن يناقش فيما ينقل بطريق صحيح عن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي لازم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع مراحل حياته؛ حيث كان يتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، ويراه في الأوقات التي لا يراه فيها غيره. وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام الكثير من النصوص والروايات التي تحدثت عن حياة رسول الله العامة، والأحداث الكبرى التي عاشها في حياته، وعن سيرته الذاتية والخاصة.

ثالثًا: الروايات التاريخية المتواترة عن المسلمين الأولين

فالنصوص المروية عن الأئمة من الصحابة الذين لا يميل بهم هوى عن جادة الحق، والتي تتحدث عن سيرة النبي تُعتبر من مصادر السيرة والتاريخ إذا ثبتت صحتها بالتواتر، أو بإحدى وسائل الإثبات الأخرى. أما النصوص والروايات التاريخية الأخرى التي لم تكن متواترة فلا بُدَّ إذا أردنا تقييم هذه النصوص من أن نعتمد على ضوابط وقواعد نستطيع من خلالها تمييز النص الصحيح الذي يعكس الواقع التاريخي بصورة صادقة من النص المصطنع أو المحرف.

وأهم ضابط وقاعدة ينبغي اعتمادها في هذا المجال هي:

عرض النصوص التاريخية وغيرها على القرآن الكريم: فما وافق كتاب الله نأخذ به، وما خالفه نتركه، وهذه قاعدة لا بُدَّ أن نعتمدها ليس في نصوص السيرة فحسب بل في كل الأحاديث المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أهل البيت عليهم السلام سواء أكانت تاريخًا، أو فقها، أو أخلاقًا، أو غير ذلك.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «سَيُكَذَّبُ عَلَيَّ كَمَا كُذِبَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي؛ فَمَا أَتَاكُمْ عَنِّي فَأَعْرِضُوهُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ: فَمَا وَافَقَهُ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا قُلْتُهُ، وَمَا خَالَفَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَمْ أَقُلْهُ»⁽¹⁾.

(1) حديثُ العَرَضِ رُويَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ، وَقَدْ احْتَجَّ بِهِ أَيْمَةُ الرَّيْدِيَّةِ فَرَوَاهُ الْإِمَامُ زَيْدٌ فِي مَجْمُوعِ رِسَالِهِ 316، وَالْإِمَامُ الْقَاسِمُ فِي مَجْمُوعِ كُتُبِهِ وَرِسَالِهِ ص 545، وَالْإِمَامُ الْهَادِي فِي مَجْمُوعِ رِسَالِهِ 480، وَالْمُرْتَضَى بْنُ الْهَادِي فِي مَجْمُوعِ رِسَالِهِ 111/1، 198، وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ 97/2، وَ 316/12 رَقْم 3224، وَالرُّوْيَانِيُّ فِي مَسْنَدِهِ 255/2، وَالْخَطِيبُ فِي الْكَفَايَةِ فِي عِلْمِ الرِّوَايَةِ 130، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ 77/55، وَالطُّوسِيُّ فِي تَهْذِيبِ الْأَحْكَامِ 225/7، وَ الرَّبِيعُ بْنُ حَبِيبٍ فِي مَسْنَدِهِ 365/1.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

التصوير القرآني للخلق العظيم

كلام الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾

لا شك أن أصدق شاهد على عظمة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن الكريم، وهو كلام الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ لا شك أن أصدق شاهد على عظمة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن الكريم، وهو كلام الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]؛ فقد أشاد القرآن كثيرًا بأخلاق صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم، وكثرت فيه الآيات التي تتحدث عن شخصيته الأخلاقية وخصائصه وصفاته الفاضلة، ونحن سنستعرض ما تيسر من هذه الآيات.

1- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

فالآية الكريمة تحكي لنا جانب العفو والرحمة والرفق واللين في سلوك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعامله مع الآخرين.

2- ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

لقد وصفت هذه الآية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بأوصاف تكشف عن مدى تأثيره واهتمامه بالمسلمين وشؤونهم وحرصه عليهم، وتُعبر عن مدى شفقتة ورحمته بهم، وكيف أنه صلى الله عليه وآله وسلم حين يصيب الواحد منهم بعض المشقة والتعب فإن ظلالاً من الأسى والحزن يخيم عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

3- ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: 61].

4- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

5- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

(2) حالة المجتمعات العربية قبل الإسلام

البداية الطبيعية للحديث عن رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم تفرض علينا إعطاء لمحة عن تاريخ ما قبل البعثة، وما اتصل بها من أحداث ووقائع؛ لتعرف على الظروف والأوضاع التي كانت تحكم المجتمعات العربية آنذاك، والمنطقة التي انطلقت فيها دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام. وسوف نستعرض في حديثنا هنا الظروف والأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في منطقة شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي.

1- الوضع الديني:

على المستوى الديني: كانت الوثنية هي الديانة الكبرى في شبه الجزيرة العربية، وكانت عقيدة الشرك وعبادة الأصنام متفشية بين سكان هذه المنطقة. ويكفي أن نذكر أن عبادتهم كانت ملونة باللون القبلي فلكل قبيلة، بل لكل بيت أحياناً وثن وطريقة في العبادة، وبالرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يعتقدون بوجود الله، وأنه الخالق إلا أنهم كانوا يعتبرون أن عبادتهم للأصنام تقرهم إلى الله زلفى، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3].

أضف إلى ذلك أنهم ما كانوا يعتقدون بالمعاد والحياة بعد الموت، وقد أشار القرآن إلى ذلك في كثير من الآيات. هذه حال الوثنية، أما اليهودية والنصرانية فلم تستطيعا - بسبب عملية التحريف الكبرى التي تعرضتا لها بعد موسى وعيسى (عليهما السلام) - أن تقدما أ نموذجاً إيجابياً بناءً للإنسان العربي، ولم تحدث في صفاته الذميمة وعاداته السيئة أي تغيير أو تبديل، حتى أن بعض النصارى من العرب كقبيلة تغلب لم يكونوا يعرفون من النصرانية إلا شرب الخمر.

إلا أن اليهودية والنصرانية أسهمتتا مع ذلك في تحضير الإنسان العربي للفجر الجديد، وذلك بالتبشير بقرب ظهور نبي عربي؛ فكان اليهود يتوعدون العرب الوثنيين ويقولون لهم: ليخرجن نبي فليكسرن أصنامكم، وقد سمى جماعة منهم أبناءهم «محمدًا»؛ رجاء أن يكون هو النبي المنتظر.. كل ذلك هيأ الأجواء معنوياً لتقبل ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبسبب وزن أهل الكتاب علمياً عند العرب في الجاهلية فقد اكتسبت هذه التنبؤات بُعداً حقيقياً انعكس قبولاً للدعوة واستجابة لها.

2- الوضع السياسي:

وأما على المستوى السياسي فإن سكان شبه الجزيرة العربية آنذاك لم يخضعوا لأي نظام أو سلطة مركزية غير سلطة القبيلة.

وبسبب أن معظم سكان هذه المنطقة كانوا من البدو الرحّل الذين يُسبون في مكان ويصبحون في آخر من جهة، وبسبب رفضهم لجميع أنواع التسلط الذي يحد من حرية الأفراد والقبيلة من جهة ثانية، وبسبب بعض العوامل الاقتصادية؛ نظرا لكون طبيعة المنطقة صحراوية لا تصلح للزراعة والعمل، ولا تساعد على الاستقرار وتنظيم الحياة والإنتاج من جهة ثالثة لأجل كل ذلك نجد أن هذه المنطقة بقيت بعيدة عن سيطرة ونفوذ الدول الكبرى آنذاك كدولة الفرس، ودولة الرومان، فلم تخضع المنطقة لحكم أي من الرومان والفرس والأحباش، ولم تتأثر بمفاهيمهم وأديانهم كثيرا.

ومن هنا فقد نشأت عن هذا الوضع ظاهرة الدويلات القبلية؛ فكان لكل قبيلة حاكم، ولكل صاحب قوة سلطان، ولم يكن يجمعهم نظام مركزي واحد، أو سلطة سياسية مركزية، وإنما كانوا يعيشون فراغا سياسيا في هذا الجانب.

3- الوضع الاجتماعي:

أما الوضع الاجتماعي فإن الحياة الصعبة التي كان يعيشها الإنسان العربي في البادية والحكم القبلي، وعدم وجود روادع دينية أو وجدانية قوية دفعت بالقبائل إلى ممارسة الحرب والاعتداء على بعضها بعضاً كوسيلة من وسائل تأمين العيش أحيانا، وأحيانا لفرض السيطرة، وأحيانا أخرى للثأر والاقتصاص، فكانت تُغير هذه القبيلة على تلك وتستولي على أموالها، وتسبي نساءها وأطفالها، وتقتل أو تأسر من تقدر عليه من رجالها ثم تعود القبيلة المنكوبة ترتبص بالقبيلة التي غلبتها وهكذا.

ولذلك فإن من يطالع كتب التاريخ يرى بوضوح إلى أي حد كانت الحالة الاجتماعية متردية في ذلك العصر، فالسلب والنهب والإغارة والتعصب القبلي كان من مميزات ذلك المجتمع، حتى إذا لم تجد القبيلة من تُغير عليه من أعدائها أغارت على أصدقائها وحتى على أبناء عمها!.

وكانت لآتفه الأسباب تحدث بينهم حروب طاحنة ومدمرة يذهب ضحيتها آلاف الناس وتستمر لسنين طويلة، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما عرف (بحرب داحس والغبراء) وهما فرسان يملك أحدهما قيس بن زهير، ويملك الآخر حذيفة بن فزارة؛ فقد استبقا واختلفا حول السابق منهما، وقد أدى اختلافهما بسبب هذا الأمر التافه إلى التنازع ونشوب الحرب بين قبيلتيهما حيث استمرت الحرب بينهما أربعين سنة من سنة 568م وحتى سنة 608م.

وأفضل مرجع للتعرف إلى ملامح الوضع الاجتماعي في العهد الجاهلي هو كلمات أمير المؤمنين عليه السلام التي يصف فيها حال العرب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول في بعض كلماته: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ (أي مقيمون) بَيْنَ حِجَارَةِ حُشْنٍ، وَحَيَاتِ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالْأَنْثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ».

ويقول جعفر بن أبي طالب «رضوان الله عليه» وهو يصف الوضع الجاهلي لما دخل على النجاشي وقد سألهم عن أحوالهم قال: «كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ: نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ...».

«عندما نجد أنَّ المجتمع العربي الذي كان مجتمعاً أمِّيًّا لا يمتلك ثقافةً، ولا يمتلك معرفةً، ولا يمتلك وعياً، والأمِّيَّةُ العربيةُ أمِّيَّةٌ شاملة، ليست فقط أمِّيَّةٌ في القراءة والكتابة، فتقول: المسألة أنهم كانوا يعانون أزمة في هذا الجانب فحسب، لا يستطيعون أن يقرأوا، ليسوا أمة متعلمة تقرأ الكتب، وحالة نادرة في أوساطهم، وكذلك أمة لا تستطيع الكتابة، والكتابة في أوساطهم حالة بسيطة، ولم تكن هذه المسألة الرئيسية، ولذلك عندما بعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن الموضوع الرئيسي في الرسالة الإلهية أن يكون له برنامج محو أمِّيَّةٍ، يتجه فقط وبشكل رئيسي إلى أن يتعلم الناس كيف يكتبون وكيف يقرأون وانتهى الموضوع، لم تكن المسألة هذه.

الأمِّيَّةُ الأكبر من ذلك والأخطر - بكل ما تعنيه الكلمة - أنهم لا يمتلكون رؤيةً صحيحة، ولا فهمًا صحيحًا، ولا معرفةً صحيحة بأشياء كثيرة جدًا، ينقصهم الوعي، المعرفة الصحيحة، النظرة الصحيحة تجاه معظم الأمور التي تتصل بحياتهم، بمسؤوليتهم، وفي مختلف المسائل، الدينية منها في المقدمة، لديهم أفكار خاطئة كثيرة، تصورات مغلوطة، ومفاهيم مغلوطة كثيرة، ليست صحيحة، وخرافات كثيرة، مساحة واسعة من التصورات والمفاهيم كانت عبارة عن خرافات، ومفاهيم تنحرف بهم في واقع حياتهم، وضياح في هذه الحياة لا هدف ولا مسيرة صحيحة يتحركون على أساسها، وهذه الأمِّيَّة كانت قائمة في الواقع العام البشري، يعني: لدى غيرهم من الأمم، ولكنهم كانوا أكثر أمِّيَّةً من غيرهم، والأمم الأخرى والأقوام الآخرون كان لديهم نفس المشكلة وبقدر متفاوت، يعني البعض أيضًا كانت لديهم حالة من الضلال الرهيب، ولكن المجتمع العربي كان المجتمع الأكثر أمِّيَّةً، والأكثر بدائيةً وجهلاً»⁽¹⁾.

4- الوضع الأخلاقي:

وأما الوضع الأخلاقي العام: فقد كانت القسوة، والفاحشة، وتعاطي الخمر والربا، ووَاد البنات والأبناء خشية العار والفقر هي السمات العامة للأخلاق المتفشية في المجتمع الجاهلي.

ويكفي أن نشير إلى بعض النماذج من العادات والتقاليد غير الأخلاقية التي كانت سائدة آنذاك؛ لمعرفة مدى شيوع الفاحشة وظاهرة انعدام الغيرة والتحلل الأخلاقي في تلك المجتمعات.

فقد أشار النص الذي ذكرناه آنفًا عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن أخيه جعفر إلى بعض الموبقات التي كانت معروفة بينهم، وإلى بعض حالاتهم وأوضاعهم السيئة، وقد أدان القرآن حياتهم الجاهلية، ونعى عليهم كثيرًا من حالاتها، فأشار على سبيل المثال إلى أن الزواج من الخالة زوجة الأب كان من جملة سلوكهم الجاهلي البغيض، وقد أشار القرآن إلى تحريم هذا السلوك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 22].

(1) من كلمة للسيد عبد الملك بدر الدين بمناسبة المولد النبوي عام 1440 هـ .

وكانوا يُكرهون الجوّاري والإماء والخدم على البغاء والزنا؛ من أجل كسب المال! وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: 33].

ويقال: إنه كانت لعبد الله بن أبيّ (رئيس المنافقين) ست جوار، وكان يكرههن على البغاء للحصول على المال! ومن عاداتهم القبيحة أيضا الطواف حول الكعبة وهم عراة: سواء الرجال والنساء! وكان الرجل إذا هددته الإفلاس وشعر بأنه سيُصاب بالفقر كان يبادر إلى قتل أولاده خوفاً من أن يراهم أذلاء جائعين! وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151].

كما أننا نستطيع معرفة مدى شيوع ظاهرة وأد البنات ودفنهن وهن أحياء من تعرض القرآن الكريم لهذه العادة، وإدانتها لهذه الجريمة، وتعنيفه لتلك المجتمعات على هذا السلوك الوحشي البشع؛ فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8، 9]، وقال أيضا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 58، 59].

هذه هي بعض أوضاع وأحوال المجتمع في شبه الجزيرة العربية آنذاك. ومن قلب هذا المجتمع، وفي قلب هذا الجو القبلي المعقد والمشرذم الذي توافرت فيه كل أنواع الفساد، والبعد عن القيم والأخلاق الذي يتطلب عملية تغيير شاملة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكون قائد عملية التغيير هذه بالوحي الإلهي، وبالرعاية الربانية، وعلى أساس الحق والصدق والطهر، وقد استطاع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في فترة وجيزة جداً أن ينقل هذه الأمة من حضيض الذل والمهانة إلى أوج العظمة والعزة والكرامة، وأن يغير فيها شجرة الإيمان التي من شأنها أن تغير فيه كل عاداتها ومفاهيمها الجاهلية، وأن تقضي على كل أسباب شقائها وآلامها.

لقد استطاع الإسلام في فترة لا تتجاوز سنواتها عدد أصابع اليدين أن يحقق أعظم إنجاز في منطقة كانت لها تلك الصفات والمميزات، وأن يحدث انقلاباً حقيقياً وجذرياً في عقلية ومواقف وسلوك وأخلاق تلك الأمة وفي مفاهيمها، وأن ينقلها من العدم إلى الوجود، ومن الموت إلى الحياة.

وقد عبر عن ذلك جعفر بن أبي طالب لملك الحبشة بعدما بين له الأوضاع المتردية التي كانوا يعيشونها قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «فَكُنَّا عَلَىٰ ذَٰلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقَافَتَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَاءِ، وَتَحَنُّنًا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ...».

العوامل المساعدة على انتصار الإسلام⁽¹⁾

ولعل أهم العوامل التي ساعدت على انتصار الإسلام وانتشاره في سرعة قياسية هي:

أولاً: نوع معجزة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وهي هذا القرآن الكريم الذي حير العرب بما تضمنه من هدىً وقيم وعلوم ومعارف وقوانين عامة وشاملة، وبما اشتمل عليه من بلاغته وفصاحته وبيانه؛ حيث استطاع بذلك أن يقهر العرب ويبرهمهم فيما كانوا يعتبرون أنفسهم ويعتبرهم العالم بأسره قمة فيه.

ومن هنا ندرك قيمة الهدي الإلهي وعظمته، وقدرته على التغيير الواسع والشامل، وأنه المنهج الوحيد القادر على أن يعالج الوضعية الجاهلية التي تعيشها الأمة اليوم. يقول السيد عبد الملك بدر الدين «رضوان الله عليه»: «ولاحظوا ما تعيشه البشرية في هذا العصر من أُمِّيَّة، في هذا الزمن لا يمكن أن يعالج مشكلة الأُمِّيَّة التي نعيشها كعرب في المقدمة قبل كل الشعوب وقبل كل الأمم، ثم من حولنا بقية الأمم، نعيش حالة رهيبية وفظيعة جدًّا من الأُمِّيَّة، غير أُمِّيَّة الكتابة، وغير أُمِّيَّة القراءة، المفاهيم الظلامية والخطئة، المنتشرة بشكل كبير، والتي لها من يروج لها، من ينشرها، والتي لها حضور كبير في المناهج التعليمية الرسمية، وفي وسائل الإعلام، وفي الأنشطة الثقافية والتعليمية بمختلف أنواعها، حضور واسع جدًّا.

لا يمكن أن تتغير هذه الأُمِّيَّة التي جعلت الأمة في حيرة وفي تخبُّط، وانعكست بآثارها السلبية على واقع الحياة، وعلى واقع الإنسان في نفسه، الحالة التربوية، الحالة الأخلاقية، الواقع العملي، الاهتمامات، التصرفات.. تأثرت بالثقافة السائدة، وهي ثقافة جعلت الأمة في حالة من الأُمِّيَّة الشديدة، أُمِّيَّة حينما لا يمتلك الناس الفكرة الصحيحة، الرؤية الصحيحة، الرؤية الرشيدة، التوجه الصحيح، النظرة الواعية إلى الأمور، هذه مفقودة في واقع الأمة إلى حدٍّ كبير، ولا يمكن أن يعالجها إلا هدى الله، إلا الرجوع إلى هذا الهدى، هذا الهدى الذي أنقذنا - فيما سبق - في الجاهلية الأولى، وغير الواقع بشكل جذري، هو فقط الكفيل في الجاهلية الأخرى بإنقاذ الأمة والانتقال بها وانتشالها من هذه الحالة؛ حتى تمتلك - من جديد - رؤيةً صحيحة، رؤيةً في واقع حياتها، في شئون حياتها، في مواقفها، لمعالجة مشاكلها، لإصلاح وضعها، رؤيةً صحيحة، رؤيةً إلهية، رؤيةً ربانية من هدى الله «سبحانه وتعالى»⁽²⁾.

ثانيًا: خصائص شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومميزاته الذاتية والأخلاقية والقيادية، أي سيرته، وأخلاقه، وسلوكه، وقيادته، وإدارته وأسلوبه في نشر الدعوة، وإصراره وتحمله لكل المشاق والآلام والأذى، ورفضه لكل المساومات، وصبره وثباته في مواقع التحدي؛ فقد كانت هذه المميزات عامل استقطاب وجذب.. وكان لها الأثر الكبير في ظهور دعوته وسرعة انتصار وانتشار رسالته.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

(1) راجع الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: ج 2 ص 210 إلى 236.

(2) من كلمة السيد عبد الملك بدر الدين بمناسبة المولد النبوي عام 1440هـ.

وقد أشار جعفر بن أبي طالب إلى بعض هذه الخصائص والمميزات في شخصية الرسول بقوله: «... حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقَافَهُ...».

ثالثًا: الحالة الاجتماعية والأخلاقية المتردية: التي كانت سائدة في المجتمع العربي آنذاك مما أشرنا إليه فيما تقدم، فإن هذه الأوضاع القاسية التي كانت تهيمن على الأمة، وذلك الضياع الذي كان يسيطر عليها قد هيا الإنسان الجاهلي المسحوق نفسيا لقبول الحق والتفاعل معه، وجعله يتطلع إلى الدعوة على أنها الأمل الوحيد الذي يستطيع أن يخفف من شقائه وآلامه وينقذه من واقعه المزري والمهين ذاك.

رابعًا: بشائر أهل الكتاب (اليهود والنصارى) بقرب ظهور نبي في المنطقة العربية، فإن تلك البشارات قد سهلت هي الأخرى قبول دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانتشار رسالته بين الناس من ذوي الفطرة السليمة كما تقدم.

خامسًا: الفراغ العقائدي والسياسي: الذي كانت تعيشه المنطقة آنذاك.

سادسًا: صمود أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم وثباتهم في مواجهة الضغوط النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحملهم الآلام، وصبرهم على التعذيب والجوع والاضطهاد بمختلف أنواعه، ثم اندفاعهم للجهاد والتضحية والشهادة بكل قوة وشجاعة وشوق؛ من أجل الدفاع عن العقيدة والرسالة، وطاعتهم المطلقة لرسول الله، وانضباطهم التام في إطار قيادته والتكاليف التي كان يحددها لهم. قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: 29].

منزلته الأخلاقية صلى الله عليه وآله وسلم في العهد الجاهلي

إن الصبغة القرآنية لمواصفات الشخصية المؤمنة بنماذجها المختلفة قد أخذت طريقها للتجسيد العملي في شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فشخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد مثلت قمة التسلسل بالنسبة لدرجات الشخصية الإسلامية التي توجد عادة في دنيا الإسلام؛ فكان صلى الله عليه وآله وسلم عظيمًا في فكره ووعيه، قمة في عبادته وتعلقه بربه الأعلى، رائدًا في أساليب تعامله مع أسرته والناس جميعًا، مثاليًا في حسم الموقف والصدق في المواطن ومواجهة الحن؛ فما من فضيلة إلا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سابق إليها، وما من مكرمة إلا وهو متقلد لها.

ومهما قيل من ثناء على أخلاقياته السامية قديمًا وحديثًا فإن ثناء الله تعالى عليه في كتابه العزيز يظل أدق تعبير، وأصدق وصف لمواصفات شخصيته العظيمة.

فقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: 4] عجز كل قلم وكل تصور وبيان عن تحديد عظيمته، فهو شهادة من الله سبحانه وتعالى على عظمة أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وسمو سجاياه، وعلو شأنه من مضمار التعامل مع ربه ونفسه ومجتمعه؛ بناء على أن الأخلاق مفهوم شامل لجميع مظاهر السلوك الإنساني.

وقبل أن يتحدث القرآن عن عظمة أخلاقه فقد نطق الكفار والمشركون بهذه الحقيقة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يبعث بعد، فاتصاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخلق العظيم لم يكن وليد الفترة التي بُعث فيها، أو من إفرازات تلك المرحلة تمشياً مع أهمية الدور الملقى على عاتقه، لا بل التاريخ يذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان ذا منزلة أخلاقية عظيمة في العهد الجاهلي، وكان محل إعجاب وتقدير قومه ومجتمعه، بل ومضرب المثل في ذلك، وقد شهد الكفار أنفسهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدق اللهجة والأمانة والعفاف ونزاهة الذات.

فقد روي أن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا تخبرني عن محمد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط.

وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتهم ساحر! لا والله ما هو بساحر.

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيصر يدعو إلى الإسلام أحضر قيصر أبا سفيان وسأله بعض الأسئلة مستفسراً عن النبي ومما سأله قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال فقلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: كيف عقله ورأيه؟ قلت: لم نعب له عقلاً ولا رأياً قط.

وروى الطبري: كانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي (الأمين).

وروي عن أبي طالب «رضوان الله عليه» في حديث عن سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجاهلية قال: لقد كنت أسمع منه إذا ذهب من الليل كلاماً يعجبني، وكنا لا نسمي على الطعام والشراب حتى سمعته يقول: بسم الله الأحد، ثم يأكل فإذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله كثيراً، فتعجبت منه، وكنت ربما أتيت غفلة فأرى من لدن رأسه نوراً محدوداً قد بلغ السماء، لم أر منه كذبة قط، ولا جاهلية قط، ولا رأيته يضحك في غير موضع الضحك، ولا وقف مع صبيان في لعب، ولا التفت إليهم، وكانت الوحدة أحب إليه والتواضع.

(3) النبي الأعظم.. الأسرة والمولد والنشأة

من أسرة الطهر والشرف جاء محمد المصطفى

يعود نسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هاشم بن عبد مناف الذي تنتسب إليه أشرف أسرة في مكة هي أسرة بني هاشم. فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، المنحدر من ذرية إسماعيل بن إبراهيم «عليهما السلام».

يقول السيد عبد الملك وهو يتحدث عن هذا الجانب: «في وسط قريش كانت أسرة بني هاشم؛ أجداد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبيته الذي ولد منه؛ كانوا أيضاً مختلفين، مثلاً: عبدالمطلب جدُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما هاشم- أيضاً- عُرفَ عنهم أنهم كانوا على حنيفة إبراهيم موحدّين، ولم يكونوا على الشرك مثلما كان عليه حال قومهم، وأيضاً أسرة متّسمة بالشرف والطهارة والبعد عن المفاصد الأخلاقية، والصيانة من المفاصد الأخلاقية، هذا شيءٌ عُرفُوا به حتى في الوسط العربي- آنذاك- أنهم أسرة تنزه عن المفاصد الأخلاقية، وأسرة تصون نفسها من هذه، وهذا لحفظ الله لهذا الشرف، حتى يأتي هذا المولود طاهراً من نسلٍ طاهر لا يتلوّث، نسل طاهر يصل به نسبه إلى إسماعيل عليه السلام، إلى إبراهيم عليه السلام، من ذرية إبراهيم، من ذرية إسماعيل، من دون أي دنس أخلاقي، أو مفاصد أخلاقية تنحرف بهذا النسل المبارك.

فرسول الله كان حقاً من نسل إسماعيل كما قال: «مَا وَلَدَنِي بَغْيٌ قَطُّ» يعني: طول نسل إسماعيل من لدن نبي الله محمد «صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله» إلى إسماعيل عليه السلام طَهَّرَ الله من هذه الرذيلة وهذه المفاصد، وأسرة هي الصفوة داخل مجتمع قريش، فكان الحال كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما روته مذاهب الأمة ومحدّثو الأمة في أهم مصادرها: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بْنِ هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» - إلى قوله- وهذا تكريم للبشر، يأتي إليهم برسول من بيئة طاهرة ونقيّة وسليمة، ليس رسولاً مشوّهاً برصيد ومحيط سبيء وفاسد، وإلا لم يكن مقبولاً»⁽¹⁾.

حادثة الفيل وإرهاصات مولد النور

«في ظل ذروة تلك الأوضاع في ما هي عليه من مشاكل وأزمات وفتن وجاهلية وظلمات أتت حادثة اسمها (حادثة الفيل)، في عامٍ سمّي بعام الفيل، عام الفيل هذا اتجهت فيه قوة عسكرية جبّارة، بقيادة أبرهة الحبشي، وأبرهة هذا من الحبشة، وله جيش كان من الحبشة ومن مرتزقة العرب، سواءً من اليمن أو من غير اليمن (من الجزيرة)، جيش ضخم اتجه بهدف هدم الكعبة، وبهدفٍ آخر رئيسي يغفل عنه الكثير من أصحاب السير والمؤرخين، الهدف

(1) من المحاضرة الرابعة بمناسبة المولد النبوي عام 1439هـ.

الآخر هو: ما قد أثر من بشارات وأخبار عن زمن أو عن عام يولد فيه نبيٌ جديد يغير وجه هذا العالم، ويسقط الكيانات القائمة للطاغوت والاستكبار والفساد والظلم والانحراف، نبي سيقدم ويغيّر هذا الواقع بكله، على أساس أن المؤشرات والأخبار تدل على مولده في ذلك العام.

وفعلاً كان العام نفسه عام مولد رسول الله «صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله»، فذهب وكان معه فيل كبير، أو مجموعة من الفيلة- كما في بعض الأخبار- بينها فيل كبير، والفيل كان يستخدم عسكرياً لدى بعض الدول- آنذاك- والكيانات المتمكنة، كما هو حال الروم والفرس، والعرب كانوا يخافون جداً من الفيل، ينهزمون عسكرياً، يعني: يرون فيه عتاداً عسكرياً غير مألوف بالنسبة لهم؛ فيخافون منه، وينهزمون بسرعة، ولا تثبت أمامه الخيول، فاتجه عسكرياً ومعه الفيل هذا والأفيال تلك، وفعلاً مع العظمة التي كانت للكعبة والتقديس الذي كان للبيت الحرام، لكن الفجيعة من الفيل جعلت العرب كلهم يتصلون عن حماية البيت، وعن التصدي لأصحاب الفيل، وغفلتهم عن الهدف الرئيسي للحملة العسكرية تلك، التي هي حملة كما كانت حملة فرعون للاستباق لولادة موسى بقتل كل الأطفال، ذهبت تلك الحملة وفشلت؛ لأن الله «سبحانه وتعالى» تصدى لها، وكان التصدي الإلهي من خلال الطير الأبايل التي أرسلها الله لإبادة ذلك الجيش، كانت هي- أيضاً- من أكبر وأهم إرهابات هذا المولد القادم الذي ولد بعد أيام، بعد أربعين يوماً في بعض الأخبار، البعض أكثر، البعض أقل، لكن في نفس ذلك العام ولد رسول الله «صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله»⁽¹⁾.

المولد والنشأة

ولدت أمه آمنة بنت وهب في مكة المكرمة في منزل أبيه عبد الله بن عبد المطلب في شعب أبي طالب يوم الإثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول في عام الفيل الموافق لسنة 571 للميلاد⁽²⁾.

«نشأ نشأةً مباركة، أنبته الله نباتاً حسناً، ونشأةً متميزة، فكان سريع النمو، وكان- أيضاً- ذا نضجٍ عجيب، كان ينشأ، يكبر ويكبر معه رشد، فهمه، تميزه، حسن إدراكه، أدبه، وكان ملفتاً فيه هذه النشأة المتميزة من حيث النمو السليم والمبارك، بركة في نموه، يكبر، وينشأ نشأةً مميزة، وفي نفس الوقت بنضجٍ كبير وعجيب في الإدراك، في الفهم، في حسن التصرف، ولم يكن حاله كحال بقية الصبيان في عبثهم، في لهوهم، في نقص الجانب الأخلاقي لديهم مثلاً في التعري أو في أي شيء... لا، كان متميزاً، كان ملحوظاً فيه الحرص على الطهارة، الحرص على صيانة النفس، البعد عن بعض الأشياء التي تنم عن قلة الأدب، وعن ضعف الإدراك لدى الصغار والصبيان، كان مختلفاً

(1) المحاضرة الرابعة للسيد عبد الملك حفظه الله بمناسبة المولد النبوي عام 1439 هـ.

(2) المشهور أنه ولد سنة 570م، وهناك اختلاف في اليوم والشهر لا يتعلق به أمر شرعي. ينظر سيرة النبي لجعفر العاملي 64/2، والسيرة للسبحاني 190، وفقه السيرة للغزالي 60. قال في البحر الزخار 206/1: عام الفيل لليلتين خلتا منه يوم الإثنين، وقيل: بعد الفيل بثلاثين يوماً أو أربعين يوماً، وينظر: تاريخ الإسلام 22/1، والمستدرک 603/2، ودلائل النبوة للبيهقي 76/1، وعيون الأثر 79/1، وسيرة ابن هشام 167/1، وابن كثير 198/1، وطبقات ابن سعد 80/1-83، والمصابيح ص 96.

عن كل الصبيان وعن كل الصغار، نشأة مميزة وتنم عن أدب عالٍ وراقٍ، وأنه محفوف من الله بتنشئة خاصة، ولديه في نفسه قابلية أودعها الله فيه «جلّ شأنه» قابلية عالية.

الإمام علي عليه السلام يحكي لنا في نصٍ مهمٍ وعظيم، قال: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملكٍ من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»، فالله «سبحانه وتعالى» لم يتركه ليكون صنعة البيئة الجاهلية التي قد تؤثر سلباً في الإنسان، أو - كذلك - أن يكله إلى تربية الناس بكل ما فيها من القصور تجاه دور ومستقبل كبير وعظيم، تجاه مسؤولية كبيرة وعظيمة جداً، تجاه مستوى من المطلوب أن يصل إليه هذا القادم، ليكون هو في الذروة بين كل البشر، يبلغ إلى حيث لم يبلغ إليه بشر ولم يصل إليه بشر من الكمال الإنساني، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم حظي بهذه الرعاية الإلهية فنشأ نشأة مباركة وأنبتته الله نباتاً حسناً، في مرحلة الشباب، في بداية الشباب كذلك كان متميزاً، ولم يتأثر بكل تلك البيئة الجاهلية في مكة وفي غير مكة، فلم يسجد لصنم قط، ولم يدنس نفسه بأي من دنس الجاهلية». (1)

كفالاته ورضاعه:

أرضعته أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف لمدة سبعة أشهر، وعاش في كنفها وحظي بعطفها وحنانها ورعايتها مدة من الزمن، وتوفيت وعمره ست سنوات على أشهر الروايات، توفيت بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قدمت به على أحواله من بني عدي بن النجار فماتت وهي راجعة به إلى مكة (2). كما أرضعته حليلة السعدية بنت أبي ذؤيب من بني سعد.

«وقامت - أيضاً - بدور كبير في العناية به في مرحلة طفولته المبكرة فاطمة بنت أسد (زوجة أبي طالب)، قال عنها صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنها كأمي، أو إنها أمي**» كان يعتبرها كأمه فيما أولته من عناية ورعاية واهتمام في طفولته» (3).

النبي في كفالة جده:

بعد أن فقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمه وأصبح بذلك يتيم الأبوين، عاش في كفالة جده عبد المطلب الذي كان يرعاه خير رعاية، ولا يأكل طعاماً إلا إذا حضر، وكان يفضل على سائر أبنائه. ويبدو أن عبد المطلب كان عارفاً بنبوة محمد وما سيكون من أمره وشأنه من خلال أمرين:

(1) المحاضرة الخامسة للسيد عبد الملك بمناسبة المولد النبوي عام 1439هـ.

(2) انظر ابن هشام 177/1، والبداية والنهاية 340/2، والطبقات الكبرى 116/1، والاستيعاب 136/1، والسيرة لابن كثير 235/1. والأبواء: قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. معجم البلدان 79/1.

(3) المحاضرة الخامسة للسيد عبد الملك بمناسبة المولد النبوي عام 1439هـ.

أولاً: من الصفات والملامح التي كانت تظهر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والبركات والأحداث التي رافقته منذ ولادته.

وثانياً: من البشائر والأخبار التي كانت تنبئ بمستقبله ونبوته.

إن هذا النوع من المؤشرات والدلائل رسخت في نفس عبد المطلب الاعتقاد بنبوة حفيده، أو أنه سيكون له شأن عظيم ودور مهم، فجعلت له صلى الله عليه وآله وسلم مكانة خاصة عنده بحيث كان يعطيه من الحب والعطف والحنان والاهتمام ما لم يعطه لأحد غيره، «كان يدينه ويقربه ويكرمه لدرجة ملفته، كان يأتي رسول الله في طفولته المبكرة إلى جده عبد المطلب وهو بفناء الكعبة، وقد فرش له هناك وكان لا يفرش لغيره، لكن لشأنه ومكانته الكبيرة، فيأتي ليجلس مباشرة بجواره أو في حضنه، فيذهب أعمامه ليأخذوه، فيقول: «دعوا ابني فو الله إن له شأنًا» يتوسم فيه أن له شأنًا عظيمًا، كذلك رويت أخبار ورؤيا كان يراها عبد المطلب في منامه تبشر بهذا الدور الكبير والعظيم لهذا الطفل الناشئ»⁽¹⁾.

إلا أن هذا الحنان الدافق وهذه الرعاية الكريمة لم تدم له صلى الله عليه وآله وسلم طويلاً؛ فقد توفي عبد المطلب والنبي في الثامنة من عمره، فانتقل بعده إلى دار عمه أبي طالب⁽²⁾.

النبي في رعاية أبي طالب:

قبل أن توافي المنية عبد المطلب كان قد جمع أولاده العشرة وأوصاهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولمح لهم بما سيكون من شأنه في المستقبل، ومما قاله لهم: إني قد خلفت لكم الشرف العظيم الذي تطؤون به رقاب الناس. على حد تعبير المؤرخ اليعقوبي⁽³⁾.

وقد اختار عبد المطلب من بين أبنائه أبا طالب ليكون هو من يكفل محمدًا بعده ويقوم برعايته، وذلك لسببين: الأول: إن أبا طالب كان أختًا لوالد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أمه، فإن أمهما هي فاطمة بنت (عمرو بن) عائد المخزومي، وطبيعي أن يكون أبو طالب أكثر حنانًا وعطفًا وحبًا لابن أخيه من أبيه وأمّه من بقية إخوانه: كالحارث، والعباس، وغيرهما الذين كانوا من أمهات شتى.

الثاني: إن أبا طالب كان أنبل إخوته وأكرمهم وأعظمهم مكانة في قريش، وأجلهم قدرًا، وقد ورث زعامة أبيه عبد المطلب، وخضع لزعامته القريب والبعيد بالرغم من فقره.

(1) المحاضرة الخامسة للسيد عبد الملك بدر الدين بمناسبة المولد النبوي عام 1439هـ.

(2) تاريخ اليعقوبي 13/2 - دار صادر.

(3) ابن هشام 189/1، والطبقات لابن سعد 119/1، و اللآلي المضيئة - مخطوط ص 60، و المصاييح لأبي العباس ص 117، والسيرة لابن كثير 240/1.

وقد قام أبو طالب برعاية النبي خير رعاية، وأدى الأمانة وحفظ الوصية وبقي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شغله الشاغل الذي شغله هو وزوجته فاطمة بنت أسد حتى عن أولادهما في أشد المراحل ضيقاً وحرماً حتى النفس الأخير من حياتهما.

ولم يكن يعني أبا طالب شيء كما تعنيه رعاية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمحافظة عليه، وقد بلغ من عنايته به وحرصه عليه أنه كان إذا اضطر إلى السفر لخارج مكة أو الحجاز أخرجه معه.

«رسول الله نشأ في هذا الجو من الرعاية ومن الاهتمام ومن العناية، وهذه ظروف هياها الله، من الله سبحانه وتعالى» أن يهني له هذا الجو، وأن يحفه بأولئك الذين أولوه كل هذه الرعاية والاهتمام والحنو والعاطفة، وعوضوه عن فقدان أبيه وأمه في يثمه، فكانت رعاية من الله، ورحمة من الله، ونعمة من الله، وتهيئة إلهية من الله سبحانه وتعالى»⁽¹⁾.

السفر إلى الشام:

تحدث المؤرخون عن رحلتين إلى الشام: إحداهما: بصحبة عمه، والأخرى: بصحبة غلام لخديجة في تجارة.

1) في الرحلة الأولى: كان عمر النبي اثنتي عشرة سنة، وكان مع عمه أبي طالب ضمن قافلة تجارية لقريش، وفي الطريق توقفت القافلة في منطقة تسمى بُصرى، وكان فيها راهب يدعى بحيرا، قال في أنوار اليقين: «وكان آخر من بقي من جملة الحجة في أهل دين النصرانية رجالان: بحيرا بن عبد الملكوت راهب بُصرى الشام، وهو الذي ورد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع عمه أبي طالب ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غلام لم يبلغ الحلم»⁽²⁾.

وقد اتفق أن التقى الراهب قافلة قريش ولفتت نظره شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وراح يتأمل ويحدق في صفاته وملاحه، خاصة بعد ما رأى أن سحابة من الغيم ترافق محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أينما جلس لتحميمه من حر الشمس؛ فسأل عنه بعض من في القافلة، فأشاروا إلى أبي طالب وقالوا له: هذا عمه، فأتى الراهب أبا طالب وبشره بأن ابن أخيه نبي هذه الأمة وأخبره بما سيكون من أمره، ووجد فيه العلامات التي وصفته بها التوراة والإنجيل وغيرها.

وتذكر النصوص أن بحيرا أصر على أبي طالب بأن يعود به إلى مكة وأن يقيه تحت رقبته خوفاً عليه من اليهود وغيرهم، فقطع أبو طالب رحلته ورجع به إلى مكة⁽³⁾.

(1) المحاضرة الخامسة للسيد عبد الملك بدر الدين بمناسبة المولد النبوي عام 1439هـ.

(2) أنوار اليقين للإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين (عليه السلام) 472/1.

(3) ابن هشام 191/1، وابن سعد 121/1، وتاريخ الطبري 277/2، والسيرة الحلبية 117/1، والبداية والنهاية 349/2، والسيرة لابن كثير 243/1، والدلائل لأبي نعيم 168/1، وعيون الأثر 105/1-106.

وفي الرحلة الثانية: كان عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسًا وعشرين سنة، ويقول المؤرخون: إن سفره هذا كان في تجارة لخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوج بها، وإن أبا طالب هو الذي أشار عليه بالعمل بالتجارة مع خديجة؛ بسبب الوضع المادي الصعب الذي كان يعيشه آنذاك.

فدخل مع خديجة في شراكة تجارية، ولم يكن أجيرًا لها؛ إذ لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم أجيرًا لأحد قط، وسافر برفقة ميسرة - وهو موظف لدى خديجة - وربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره.

بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رعاية عمه أبي طالب حتى كبر وبلغ الخامسة والعشرين من عمره فتزوج بخديجة بنت خويلد.

الزواج من خديجة:

يذكر المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوج بخديجة بنت خويلد، زوجته الأولى بعد عودته من رحلته الثانية إلى الشام، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره الشريف.

ونكاد نقطع بسبب كثرة النصوص أن خديجة هي التي بادرت أولاً وأبدت رغبتها في الزواج من محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعدما رأت فيه من الصفات النبيلة ما لم تره في غيره.

ويرجح كثير من المؤرخين أن يكون عمر خديجة حين زواج النبي بها ما بين الخامسة والعشرين إلى السابعة والعشرين عامًا وليس أكثر من ذلك⁽¹⁾. ولم يتزوج غيرها إلا بعد وفاتها؛ لقد أحب رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم خديجة (رضوان الله عليها) وأحبته، وأخلص لها وأخلصت له، فلم يكن يرى في الدنيا من النساء من تُعادل خديجة: فهي أول من آمنت برسالته، وصدقت دعوته، وبذلت مالها وثروتها الطائلة في سبيل الله تعالى، ومن أجل نشر الدعوة الإسلامية؛ فتحملت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عذاب قريش ومقاطعتها وحصارها. وكان هذا الإخلاص الفريد، والإيمان الصادق، والحب المخلص من خديجة حريًا بأن يقابله الرسول الكريم بما يستحق من الحب والإخلاص والتكريم، وبلغ من حبه لها، وعظيم مكانتها في نفسه الطاهرة، أن هذا الحب والوفاء لم يفارق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعد موتها، ولم تستطع أي من زوجاته أن تحتل مكانتها في نفسه؛ فقد روى أبو العباس الحسني في كتاب

(1) اختلف في عُمر خديجة بين 25 و 28 و 30 و 35 و 40 و 45، ورجح البيهقي، وابن كثير أن النبي تزوجها وعمرها 25. ينظر دلائل النبوة للبيهقي 71/2، والسيرة النبوية لابن كثير 265/1، والبداية والنهاية 359/3، والسيرة الحلبية 140/1، وأنساب الأشراف 112/1، وسير أعلام النبلاء 111/2. فالبيهقي وابن كثير في البداية والنهاية رجحا أن عمر خديجة حين تزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم (25) سنة، واعتبرا موت خديجة وعمرها خمسون سنة هو الأصح؛ فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوجها وعمرها 25، وظلت معه قبل البعثة 15 سنة، وبعدها 10 سنوات، فالجملة 50، وروى الحاكم في المستدرک 182/3 من حديث: كان لها يوم تزوجها ثمان وعشرون سنة؛ لذا اعتبر قول من قال: إن خديجة توفيت وعمرها (65) سنة شاذًا، وقال: وهذا عندي شاذ؛ لأنها لم تبلغ ستين سنة، وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء 111/2، عن ابن عباس أن النبي تزوجها بنت ثمان وعشرين سنة.

المصاييح في السيرة عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أهدي إليه هدية قال: «**اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، اذهبوا بها إلى فلانة فإنها كانت تحب خديجة**»⁽¹⁾.

وكانت رضوان الله عليها أفضل نسائه بل إحدى أفضل نساء العالمين ففي المصاييح أيضا عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله: «**حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد...**»⁽²⁾.

كما بشرها صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة فعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أُمِرْتُ أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بَبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَحْبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ**»⁽³⁾.

(1) المصاييح لأبي العباس الحسيني ص 218 رقم 88، وأمالى أبي طالب ص 40، والأمالى الاثنيية 204، وفي البخاري رقم 3607، ومسلم 2435.

(2) المصاييح لأبي العباس الحسيني ص 218 رقم 89 الترمذي 660/5 رقم 3878 وقال: صحيح، وذخائر العقبى ص 43، والطبراني في الكبير 402/22 رقم 1003، والأوسط 54/7، والمستدرک 158/3 ووافقه الذهبي، ومصنف عبدالرزاق 430/11 رقم 20919، وابن أبي شيبة 391/6 رقم 32291، ومسند أحمد 273/4 رقم 12394، وأبو يعلى 380/5 رقم 3039، وابن حبان 401/15 رقم 6951.

(3) البخاري رقم 3609/3605، ومسلم رقم 2435/2432 فضائل خديجة. والقصص: الجوهر.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

علاقته صلى الله عليه وآله وسلم بربه - 1

صلاته صلى الله عليه وآله وسلم:

نظرًا لما تحتله الصلاة من مكانة عظمى في الإسلام؛ فقد كان اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها وتعاهده لأمرها منقطع النظير.

- فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يصلي الصلاة في أول وقتها ويحث المسلمين على ذلك؛ وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «خير موضوع فمن شاء أقل ومن شاء استكثر» الحديث⁽¹⁾.

- وعن عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه⁽²⁾.

- ولعظيم شوقه للوقوف بين يدي الله في الصلاة فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينتظر وقت الصلاة ويتربص دخوله، ويقول لبلال مؤذنه: «أرحنا يا بلال»⁽³⁾.

- عن الحسين بن علي (عليهما السلام) في حديث عن خضوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلاته يقول عليه السلام: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبكي حتى يبتل مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم»⁽⁴⁾.

...

(1) أمالي المرشد بالله 260/1 الحديث العاشر: في الصلاة وفضل التهجد وما يتصل بذلك.

(2) أخلاق النبي للأصبهاني ص 251.

(3) أخرجه أحمد 39/9 رقم 23149، وأبو داود 296/4 رقم 4986، والطبراني في الكبير 277/6 رقم 6215.

(4) أورده الطباطبائي في الميزان 308/6، 309.

(4) مكانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة

اتفق المؤرخون على أن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم أصبح في مطلع شبابه موضع احترام في مجتمعه؛ لما كان يمتلكه في شخصيته من وعي وحكمة وإخلاص وتُعد نظره.

وقد اشتهر بسمو الأخلاق وكرم النفس، والصدق والأمانة حتى عُرف بين قومه بالصادق الأمين، كما اشتهر برجاحة عقله، وصوابية رأيه حتى وجد فيه المكيون والقرشيون سيدًا من سادات العرب الموهوبين، ومرجعًا لهم في المهمات وحل المشكلات والخصومات.

فقد ذكر المؤرخون أن الناس كانوا يتحاكمون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجاهلية؛ لأنه كان لا يداري ولا يماري.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسهم في بعض أحداث مجتمعه وفي تجارب قريش السياسية والعسكرية والدينية، حيثما رأى في هذه التجارب حقًا وعدلًا، وقد شارك بشكل فاعل ومؤثر في حدثين تاريخيين حصلا قبل البعثة هما: حلف الفضول، وتحديد بناء الكعبة.

حلف الفضول

بعد سلسلة من حوادث الاعتداء على أموال وأعراض بعض الوافدين إلى مكة في موسم الحج للزيارة أو التجارة- دعا الزبير بن عبد المطلب إلى إقامة تحالف بين قبائل قريش؛ بهدف مواجهة كل من يعتدي على الآخرين، ووضع حد لخطر بعض المكيين الذين كانوا يتعمدون الإساءة ويقومون بالاعتداء على الزائرين.

فاستجاب لدعوته بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو أسد، وغيرهم، وعقدوا اجتماعًا في دار عبد الله بن جدعان تحالفوا فيه على محاربة الظلم والفساد والانتصار للمظلوم والدفاع عن الحق، وكان هذا التحالف أشرف تحالف يعقد في الجاهلية، وقد سمي بحلف الفضول؛ لأن قريشا قالت بعد إبرامه: هذا فضول من الحلف، وقيل: لأن ثلاثة ممن اشتركوا فيه كانوا يُعرفون باسم الفضل، وهم الفضل بن مشاعة، والفضل بن بضاعة، والفضل بن قضاة، فسمي بذلك تغييبًا لأسماء هؤلاء.⁽¹⁾

(1) وقيل: سمي بهذا الاسم تشبيها بحلف قديم بمكة أيام جرههم: على التناصف، والأخذ للضعيف من القوي، وقيل: سمي حلف الفضول لبذلهم فضول أموالهم. وقيل: لتكلفتهم فضولًا لا يجب عليهم. وقيل: لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها، وألا يغزو ظالمهم مظلوما. لسان العرب 527/11.

تبنى أبو طالب وغيره من القرشيين الحلف المذكور، وقد حضره صلى الله عليه وآله وسلم وشارك فيه، وكان يتجاوز العشرين من عمره الشريف، وأثنى عليه بعد نبوته وأمضاه، فقد رُوي أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«لَقَدْ حَضَرْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حَلْفًا مَا يَسُرُّنِي بِهِ حُمْرُ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى مِثْلِهِ لَأَجَبْتُ»**⁽¹⁾.

إن نظرة تحليلية بسيطة على هذا الحلف تقودنا إلى تسجيل الأمور التالية:

أولاً: إن ثناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هذا الحلف ومشاركته فيه وإمضاه له يدل على أن هذا الحلف ينسجم في أهدافه مع أهداف الإسلام؛ لأنه قائم على أساس الحق والعدل والخير.

ثانياً: إن هذا يؤكد واقعية الإسلام، وأنه إنما ينظر إلى مضمون العمل وقيمه وليس إلى شكله وصورته، فالإسلام لا يغتر بالمظاهر، ولا تخدعه الشعارات مهما كانت براقاً إذا كانت تخفي وراءها الوصولية والخيانة والتآمر.

ثالثاً: إن اهتمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحلف الفضول إنما يدل على أن الإسلام ليس مغلقاً على نفسه، وإنما هو يستجيب لكل عمل إيجابي فيه خير الإنسان، ويشارك فيه على أعلى المستويات انطلاقاً من الشعور بالمسؤولية، وانسجاماً مع أهدافه الكبرى، ومع مقتضيات الفطرية والعقل السليم.

رابعاً: إن موقفه صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الحلف ليس إلا من أجل تحريك المشاعر وإيقاظ الضمائر للتحالف والتكتل في وجه الظلم والعدوان، والتعاون على الخير والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل عصر وزمان وخاصة إذا انحرف الحاكم واتبع أهواءه واستغل أموال الناس وخيرات البلاد والعباد لمصلحته وأطماعه الذاتية.

تجديد بناء الكعبة

أول من بنى الكعبة آدم عليه السلام ثم اتخذه البناء؛ فكان إبراهيم عليه السلام أول من رفع قواعده من جديد، وأبان أعلامه، وذلك بأمر من الله؛ ليكون مركزاً للتوحيد والعبادة، وذلك بعد أن هاجر إبراهيم بزوجه هاجر وولده إسماعيل إلى أرض مكة⁽²⁾.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [البقرة: 127].

وقد ظلت الكعبة معبداً للعرب على مر السنين يحجون إليها ويتعاهدونها بالبناء والتزيم كلما دعت الحاجة.

(1) طبقات ابن سعد 1/128، والسبل 2/208، وسنن البيهقي 6/167، والبداية 4/355، والروض الأنف 1/155، والسيرة لابن كثير 1/257، وسيرة ابن هشام 1/141.

(2) في شرح الزرقاني على الموطأ 2/397: اختلف في أول من بناها: فحكى المحب الطبري أن الله وضعها أولاً لا ببناء أحد. وللأزرقي عن علي بن الحسين أن الملائكة بنتها قبل آدم. ولعبد الرزاق عن عطاء أول من بنى البيت آدم. وعن وهب بن منبه أول من بناه شيث بن آدم. وقيل: أول من بناه إبراهيم. اهـ. وينظر الكشاف 1/414، وتفسير ابن كثير 1/216.

وقيل: إنها تهدمت بعد أن مرت عليها القرون الطويلة فأعاد العمالقة بناءها ثم تهدمت بعد ذلك فبنتها جُرُهم وأصبحت في ولايتهم.

ويقول بعض المؤرخين: إن قبيلة جرهم بغت واستحلت المحارم فأبادهها الله، وانتقلت ولاية الكعبة من بعدها إلى خزاعة، ثم من بعدهم إلى قريش.

في أثناء ولاية قريش عليها وقبل النبوة بخمس سنوات أو أكثر تم هدمها وتجديد بنائها ورصدوا لذلك نفقة طيبة ليس فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة مما أخذوه غضبًا، أو قطعوا به رحمًا أو انتهكوا فيه حرمة وذمة.

ويقول المؤرخون: إن قريشا وزعت الهدم والبناء على القبائل فكان لكل قبيلة جهة معينة، وكان الوليد بن المغيرة أول من بادر إلى هدمها بعد أن تهيب غيره من فعل ذلك.

وهكذا بدأت كل قبيلة تجمع الحجارة وتبني الجهة المعينة لها حسب الخطة، ويقال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شارك في جمع الحجارة.

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يرفع الحجر إلى موضعه، وأصبحت كل قبيلة تريد هي أن تنال شرف رفعه إلى موضعه لأنهم كانوا يرون أن من يضع الحجر في مكانه تكون له السيادة والزعامة.

وكاد الأمر يؤدي بهم إلى فتنة كبيرة حيث استعدوا للقتال وانضم كل حليف إلى حليفه، حتى أن بعض القبائل تحالفوا على الموت وغمسوا أيديهم في الدم فسُئِمُوا لُعَقَةَ الدم.

ولما وصلوا إلى هذا الحد الخطير اقترح عليهم أبو أمية بن المغيرة - والد أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أن يحكِّموا في هذا النزاع أول داخل عليهم؛ فكان محمد بن عبد الله أول الوافدين فلما رأوه استبشروا بقدمه وقالوا: لقد جاءكم الصادق الأمين، أو هذا الأمين قد رضينا به حكمًا.

فطلب منهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحضروا له ثوبًا فأتوا له بثوب كبير، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده، ثم التفت إلى شيوخهم وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ثم ارفعوه جميعًا، فاستحسنوا ذلك ووجدوا فيه حلا يحفظ حقوق الجميع، ولا يعطي لأحد امتيازًا على الآخر ففعلوا ما أمرهم به، فلما أصبح الحجر بمحاذاة الموضع المخصص له أخذه رسول الله بيده الكريمة ووضعه مكانه.

إن التأمل في وقائع هذه الحادثة يجعلنا نخلص إلى النتائج التالية:

الأولى: إن اشتراط قريش أن تكون نفقة الكعبة طيبة لا ربا ولا غضب فيها ولا مظلمة لأحد... إن دل على شيء فإنما يدل على شعور حقيقي بقبح هذه الأمور وعدم رضا الله والوجدان بها، وقد يفسر ذلك أيضا باقتضاء الفطرة لذلك، وحكم العقل بقبحه.

الثانية: إن ما تقدم يدل على أن أهل مكة كانوا يتعاملون بالمنطق القبلي حتى في تعاونه على بناء البيت وحمل الحجارة له، وهو أقدم مقدساتهم ورمز عزهم ومجدهم وكرامتهم، بل وعليه تقوم حياتهم وإن تحالف لعقة الدم حينما اختلفوا فيمن يرفع الحجر إلى موضعه يعتبر الذروة في هذا المنطق الجاهلي الذي يأباه الوعي الإنساني وتنبؤ عنه الفطرة ويفضيه العقل السليم.

الثالثة: إن فرح قريش حينما رأوا النبي أول داخل عليهم ثم وصفهم له بأنه الصادق الأمين، يكشف عن المكانة الاجتماعية الخاصة التي كان يحتلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفوس الناس في مكة حتى أنهم كانوا يحكمونه في كثير مما كان يقع الخلاف فيه بينهم ويضعون كل ثقتهم به، وبعقله ووعيه وحكمته.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

علاقته صلى الله عليه وآله وسلم بربه-2

صومه صلى الله عليه وآله وسلم واعتكافه:

- نظرًا للأهمية البالغة التي يحتلها الصوم في الإسلام فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان شديد التعلق به كأحد الوسائل الأساسية للتقرب إلى الله ونيل رضوانه فإنه صلى الله عليه وآله وسلم فضلًا عن أدائه فرض الصيام في شهر رمضان كان يكثر من الصيام المستحب؛ فقد صام كل يوم فترة من الزمن، ثم صام يومًا وأفطر يومًا ما شاء الله من عمره، ثم صام شعبان والأيام البيض—أي ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر—من كل شهر. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان العشر الأخير من شهر رمضان اعتكف في المسجد وضربت له قبة من شعر وشمّر (أي أقبل على طاعة ربه) وشد المززر (يعني اعتزل النساء)⁽¹⁾.
- وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «.. فلم يزل يعتكف صلى الله عليه وآله وسلم في العشر الأخير من رمضان حتى توفاه الله»⁽²⁾.
- وروي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل شهر رمضان أطلق كل أسير وأعطى كل سائل⁽³⁾.

...

(1) الأحكام للإمام الهادي 207/1، ومسنند الإمام زيد 202/1، 203.

(2) الدارقطني 201/2 رقم 10، والبيهقي 315/4، وابن خزيمة 345/3 رقم 2223، وعبد الرزاق 247/4 رقم 7682.

(3) أمالي أبي طالب 376 رقم 440 والأمالي الخميسية 2/ الباب الثالث عشر: في ذكر ليلة القدر وفضلها.

(5) البعثة النبوية

لقد أعدّ الله نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهياً لحمل الرسالة، وأداء الأمانة الكبرى، وإنقاذ البشرية، وحين بلغ الأربعين من عمره الشريف اختاره الله رسولاً وهادياً للبشرية جمعاء.

والمروي عن أئمة اهل البيت عليهم السلام أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعث بالإسلام بعد عام الفيل بأربعين سنة (610م).

وقد بدأ نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة جبرائيل الأمين عليه السلام في شهر رمضان المبارك، ويقال: إن أول ما نزل من القرآن هو سورة العلق.

والصحيح المروي عن أئمة العترة عليهم السلام وغيرهم أن أول ما نزل به جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو: سورة الحمد (الفاتحة). قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في بداية تفسيره للقرآن الكريم: «ونبدأ من تفسير كتاب الله بما نرجو أن يكون الله به بدأ، من تفسير السورة التي أمر نبيّه أن يسأله فيها الهدى، وسماها عوامّ هذه الأمة فاتحة الكتاب والفرقان، وقال بعضهم: اسمها أمّ القرآن، وذلك مما يدل من يستدل على أنها أول ما نزل، لا كما يقول بعض جهلة العوامّ بغير ما دليل ولا برهان؛ أن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 1، 2].

ألا ترى كيف يقول: اقرأ ما يُقرئك، باسم ربك الذي نزل عليك، فأخبر جلّ ثناؤه أن قد نزل عليه قبلها الاسم الذي أمره أن يقرأ به فيها ولها، وأن يقدمه في القراءة عليها، ثم يصير بعد القراءة به إليها. ألا ترى أنه لو كان ما قد قرأ هو ما أمر عليه السلام أن يقرأ؛ لكان إنما أمر بفعل تامّ مفعول، وقول قد تقدم مقول، وإنما اسم ربه الذي أمر أن يقرأ به ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي قدّم به في صدر كل سورة عند أول كل تعليم»⁽¹⁾.

(1) ينظر مجموع الإمام القاسم بن إبراهيم 38/2. قال في الكشف 775/4: «ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت "اقرأ" وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب». وقال البغوي 21/1: «ولها ثلاثة أسماء معروفة: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، سميت فاتحة الكتاب؛ لأنه تعالى بها افتتح القرآن، وأم الكتاب؛ لأنها أصل القرآن؛ منها بُدئ القرآن. وأم الشيء: أصله، ويقال لمكة: أم القرى؛ لأنها أصل البلاد، دحيت الأرض من تحتها. وقيل: لأنها مقدمة وإمام لما يتلوها من السور يبدأ بكتابتها في الصحف وبقراءتها في الصلاة». وللخازن 21/1: نحو من كلام البغوي، قال: «بها افتتح القرآن، وبها تفتتح كتابة المصاحف، وبها تفتتح الصلاة... إلخ». وللشهاب في حاشيته على البيضاوي 109/1 في تفسير أم القرآن قوله: «...أو في النزول بناءً على أنها أول سورة نزلت». قال الدرويش في إعراب القرآن 20/1: «الأرجح أن "الفاتحة" هي أول سورة كاملة نزلت، وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجعلها أول القرآن، وانعقد على ذلك الإجماع». وقد لفت نظر أبي السعود ورودها في أول المصحف، وأنه قد يرد دليلاً على نزولها أولاً فقال: «إن اعتبار المبدئية من حيث التعليم أو من حيث النزول يستدعي مراعاة الترتيب في بقية أجزاء الكتاب..... إلخ». (تفسير أبي السعود 8/1). قال الإمام محمد عبده في تفسيره المنار 66/1: «ونحن نقول: إن الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الإمام علي رضي الله عنه، وهو أعلم بهذا من غيره؛ لأنه تربي

لقد كانت هناك تهيئة للنبي من قِبَلِ الله تعالى لتلقي الوحي عبر طرق عدة؛ منها: الإلهام والإلقاء في نفسه، وكذا من خلال الرؤيا الصادقة، ولم يُفاجأ به كما تُصوَّرُ بعضُ الأخبار، ولم يكن خائفاً أو مرعوباً مما جرى له، بل كان عالماً بنبوة نفسه، وكان ينتظر اللحظة التي يأتيه فيها جبرائيل ليعلن نبوته ورسالته، بل بعد تلقين ذلك البيان الإلهي عاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به من النبوة والرسالة مطمئناً إلى المهمة التي شرفه الله بها، فلما دخل على خديجة أخبرها بما أنزله الله عليه وما سمعه من جبرائيل فقالت له: أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، وأبشر فإنك رسول الله حقاً.

انتشر خبر نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وسط البيت النبوي فبادر عدد من الذين وصلهم الخبر إلى تصديق النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان برسالته، ويوصف الذين بادروا إلى الإيمان بـ (السابقين)، وقد اعتبر السبق إلى الإسلام امتيازاً ومعيّاراً للفضل وعلو المنزلة.

وقد اتفق المؤرخون والمحدثون على أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو أول الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عمره آنذاك عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة⁽¹⁾.

وقد ورد ذلك في النصوص الصحيحة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وورد عنهم عليهم السلام أن النبي بعث يوم الإثنين وأن علياً صلى معه يوم الثلاثاء⁽²⁾.

وأن أمير المؤمنين عليه السلام هو أول الأمة قاطبة إسلاماً وإيماناً.

وروى الحاكم النيسابوري بسند صحيح عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«أولكم وروداً علي الحوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب»**⁽³⁾.

في حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأول من آمن به، وإن لم تكن أول سورة على الإطلاق، فلا خلاف أنها من أوائل السور». (ومن رجع أن الفاتحة هي أول ما نزل: النسفي في تفسيره 662/3 في قول، والزمخشري في الكشاف 775/4، والإمام محمد عبده في المنار 35/1، والخليلي في جواهر التفسير 163/1، ومال إليه الرازي 14/32، والطبري 317/15. ورواه أصحاب السير (البداية والنهاية 14/3)، وهو رأي أئمة أهل البيت (المصابيح 141/1)، وأما أحمد بن عيسى 357/1. ⁽¹⁾ ابن هشام 262/1، والسيرة الحلبية 268/1، وتأريخ الطبري 309/2، وأسد الغابة 88/4، وعيون الأثر 179/1، والبداية والنهاية لابن كثير 34-35، ومحمد رسول الله 68، ودلائل النبوة 160/2، وتأريخ المسعودي 176/2، وابن كثير 428/1، والطبري 310/2، وتأريخ دمشق 27/42، والمصنف لعبد الرزاق 325/5. وقد أوسع في ذلك في شرح النهج 219/4، ورجح أبو جعفر الإسكافي أن عمره حين أسلم 15 عاماً.

⁽²⁾ ذخائر العقبى 58، وروى الترمذي برقم 3728 عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَصَلَّى عَلَيَّ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ. وابن كثير في البداية والنهاية 369/7، وابن عساكر في تاريخ دمشق 303/17 عن ابن رافع، والحاكم في المستدرک 122/3، والطبري 309-310، والمنتهى لابن الجوزي 67/5، والكامل لابن الأثير 37/2، والاستيعاب 200/3، وأسد الغابة 89/4.

⁽³⁾ الحاكم في المستدرک 136/3، وابن عساكر في تاريخ دمشق 306/17، وأسد الغابة 90/4، والهيتمي في زوائد 102/9، والاستيعاب 198/3، ومصنف ابن أبي شيبة 371/6 رقم 32112، والمغازي 67.

وروى أحمد بن حنبل أن النبي قال: «علي بن أبي طالب أول أصحابي إسلاماً»⁽¹⁾.

كما أن ابن أبي الحديد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أخذ بيد علي وقال: «هذا أول من آمن بي وصدقني وصلى معي»⁽²⁾.

وعلي نفسه يصرح في أكثر من موقف أنه أول من أسلم، وأنه لم يسبقه أحد في الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه الصديق الأكبر، وأنه لا يعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله قبله غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم⁽³⁾.

كما أنه عليه السلام احتج على خصومه في مناسبات عديدة بأنه أول من آمن وصدق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك فعل أتباعه من الصحابة والتابعين؛ حيث احتجوا على خصومهم في صفين وغيرها بأن إمامهم علي بن أبي طالب عليه السلام أول الناس إسلاماً، ولم نجد أحداً من أعدائه حاول إنكار ذلك، أو التشكيك فيه، أو طرح اسم بديل عنه بالرغم من توافر الدواعي والمقتضيات السياسية والمذهبية وغيرها لطرح اسم رجل آخر على أنه صاحب هذه الفضيلة دون علي عليه السلام.

إن احتجاجه واحتجاج أصحابه على خصومهم بأنه أول من أسلم دون أن يجزئ أحد على الإنكار يدل دلالة واضحة ليس على كون علي عليه السلام هو أول من آمن في هذه الأمة فحسب بل على أن أسبقية علي للإسلام كانت من الأمور المسلمة لدى جميع الناس آنذاك.

ومن المسلمات التاريخية أيضاً أن خديجة بنت خويلد زوجة النبي الأولى كانت أول امرأة آمنت وصدقت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد صلت مع رسول الله في اليوم الثاني من مبعثه وما على وجه الأرض أحد يعبد الله على هذا الدين إلا النبي وعلي بن أبي طالب⁽⁴⁾.

(1) مسند أحمد: ج 5 ص 26.

(2) شرح نهج البلاغة: ج 12 ص 225.

(3) تاريخ دمشق 304/17، وفرائد السمطين 248/1، والكامل لابن الأثير 37/2، وابن ماجه 120/1، وَقَالَ فِي تَجْمَعِ الرِّوَايَاتِ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَخَصَائِصُ النَّسَائِيِّ رَقْمَ 6 بَلْفُظ: «أَنَا الصَّدِيقُ الْأَكْبَرُ لَا يَقُولُهَا بَعْدِي إِلَّا كَاذِبٌ»، وَالْحَاكِمُ 112/3 وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ.

(4) أَجْمَعَ أَهْلُ السِّيَرِ وَالتَّوَارِيخِ أَنَّ عَلِيًّا أَسْلَمَ بَعْدَ خَدِيجَةَ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ، هِيَ يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ، وَعَلِيٌّ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ. يَنْظُرُ الْمُسْتَدْرَكُ 133/3، وَسِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ 245/1. وَطَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ 21/3. وَالْإِصَابَةُ 501/2. وَالتِّرْمِذِيُّ 598/5 رَقْمَ 3798. وَمَجْمَعُ الزَّوَايِدِ 103/9. وَأُسْدُ الْغَابَةِ 89/4. وَالْإِسْتِيعَابُ 200/3. وَالتَّطَبُّرُ 309/2 وَمَا بَعْدَهَا. وَابْنُ الْأَثِيرِ 37/2. وَالْمُنْتَظَمُ 67/5. وَتَارِيخُ الْخُلَفَاءِ لِلذَّهَبِيِّ ص 624. أَمَّا كُتُبُ الرَّيْدِيَّةِ وَالْإِمَامِيَّةِ وَالْمُعْتَرِلَةِ فَمُجْمَعَةٌ أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيًّا أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ خَدِيجَةَ. وَرَوَى عَنْ عَفِيفِ الْكَنْدِيِّ - وَكَانَ تَاجِرًا - أَنَّهُ جَاءَ إِلَى مَكَّةَ فَشَاهَدَ رَجُلًا وَغُلَامًا وَامْرَأَةً يُصَلُّونَ، فَسَأَلَ الْعَبَّاسَ؛ فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الرَّجُلَ مُحَمَّدٌ، وَالْغُلَامَ عَلِيٌّ، وَالْمَرْأَةَ خَدِيجَةُ، وَقَالَ: هَذَا دَيْنٌ جَاءَ بِهِ ابْنُ أَخِي، وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ عَلَى هَذَا الدِّينِ غَيْرُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ. يَنْظُرُ الْخَصَائِصُ 27، وَالْإِسْتِيعَابُ 201/3، وَالْحَاكِمُ 183/3، وَأُسْدُ الْغَابَةِ 47/4، وَتَهْذِيبُ الْكَمَالِ 184/20، وَالسِّيَرَةُ

يقول عليه السلام وهو يصف حاله مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالافتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: «هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ الْوَزِيرُ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ»⁽¹⁾.

وبعد كل ما تقدم نعرف أن ادعاء سبق غير علي عليه السلام إلى الإسلام ادعاء غير صحيح تبطله كل النصوص والحقائق التي ذكرناها.. على أن هذا الادعاء قد جاء متأخراً عن عهد الخلفاء الأربعة، وتمت صياغته بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، ولربما يكون قد حصل ذلك حينما كتب معاوية إلى ولاته على الأقطار يأمرهم أن لا يدعوا فضيلة علي عليه السلام إلا ويأتوه بمثلها لغيره من الصحابة.

ومن هنا فإننا نعتقد بأن القول بأولية إسلام بعض الصحابة غير علي عليه السلام موضوع في وقت متأخر تزلزلاً للأمويين.

وأما القول بأن علياً عليه السلام هو أول من أسلم من الصبيان لا من الرجال فهو قول عجيب وذلك لما يلي: **أولاً:** إنه قد جاء في بعض النصوص المروية عن علي عليه السلام وعن غيره التعبير بأنه أول رجل أسلم، ففي سيرة المؤرخ الشهير ابن إسحاق⁽²⁾ (ت: 151) أن علياً عليه السلام أول الرجال إسلاماً، مما يعني أنه كان حينئذ رجلاً بالغاً.

ثانياً: إنه وإن كان الأرجح أن علياً عليه السلام قد أسلم وعمره عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة إلا أنه من الواضح أن الرجولة والبلوغ لا ينحصر بالسن، على أن ثمة أقوالاً كثيرة في سن علي عليه السلام حين إسلامه، فالحافظ عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والحسن البصري وغيرهم كثير يذكرون في سن علي رقماً يتراوح بين 12 سنة إلى 16 سنة، وبعضهم يتجاوز ذلك أيضاً، فكيف يصح وصفه بالصبي؟!⁽³⁾.

لابن كثير 430/1، والبداية 34/2، والطبري 313/2، والمنتهى 359/2، وتأريخ ابن الوردي 99/1، وتأريخ الإسلام للذهبي، والسيرة النبوية 137، واليعقوبي 343/1، وسيرة سيد المرسلين 330/1، والصحيح من سيرة النبي 320/2، والاعتصام 274/1.

(1) نهج البلاغة: الخطبة 192.

(2) سيرة ابن إسحاق: ص 138.

(3) فعن الحسن البصري أن الإمام علياً أسلم وعمره 15 سنة. وعن عروة 8 سنوات. وعن أبي الأسود 13 سنة وضح هذا القول الإمام أبو طالب. وعن شريك 11 سنة. وقال الكلبي: كان عمره تسع سنين وقيل إحدى عشرة سنة. قال ابن إسحاق: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين. ينظر ابن هشام 262/1، والحلبية 268/1،

ثالثاً: إن سن البلوغ قد حددت بعد الهجرة في غزوة الخندق في قضية رد ابن عمر وقبوله في الغزو⁽¹⁾، أما قبل ذلك فقد كان المعتمد هو التمييز والإدراك وعليه يدور مدار التكليف والدعوة إلى الإسلام والإيمان وعدمه، ولولا أن أمير المؤمنين عليه السلام كان في مستوى الإسلام والإيمان لم يقدم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم على دعوته إلى الإسلام ثم قبوله منه، وإلا لكان ذلك سفهًا، ولا يمكن صدور السفه من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

رابعاً: لو كان الأمر كما ذكره فلا يبقى معنى لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه: «**إنه أول من أسلم**»، أو «**أولكم إسلاماً**» فإن معنى ذلك هو أن أوليته بالنسبة إلى النساء والرجال والعبيد والأحرار على حد سواء. **خامساً:** إننا لم نجد أحدًا واجه احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام والصحابه والتابعين بحجة من هذا القبيل. **الخلاصة:** أن المؤرخين والمحدثين قد اتفقوا على أن عليًا عليه السلام أول الناس إسلامًا؛ ولكنهم اختلفوا في سنه يوم إسلامه؛ فقليل: أن عمره يوم إسلامه كان يتراوح بين العاشرة والثالثة عشرة، وقيل أنه كان في الخامسة عشرة من عمره كما ذهب إلى ذلك الحسن البصري وجماعة من المحدثين، منهم محمد بن سليمان الكوفي يروي بسنده عن ابن عباس قال: أول من أسلم علي بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة سنة أو ست عشرة⁽²⁾.

وتحدث العقاد عن مولد علي عليه السلام وإسلامه في كتابه (عبقريّة الإمام علي ص 23) وقد جاء فيه: إن عليًا ولد في داخل الكعبة وكرم الله وجهه عن السجود للأصنام فكأنما كان ميلاده إيذانًا بعهد جديد للكعبة والعبادة فيها، بل قد ولد مسلمًا على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام، وقد تربي في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة في صلاة صلى الله عليه وآله وسلم وزوجه الطاهرة.

وتأريخ الطبري 309/2، وأسد الغابة 88/4، وعيون الأثر 179/1، والبداية والنهاية لابن كثير 34/3-35، ومحمد رسول الله 68، ودلائل النبوة 160/2، وتاريخ المسعودي 176/2، وابن كثير 428/1، والطبري 310/2، وتاريخ دمشق 27/42، والمصنف لعبد الرزاق 325/5. وقد أوسع في ذلك في شرح النهج 219/4، ورجح أبو جعفر الإسكافي أن عمره حين أسلم 15 عامًا.

وقال العامري في كتابه الرياض المستطابة ص 164 في ترجمة الإمام علي: أسلم رضي الله عنه وهو ابن ثمان سنين، أو عشر، أو أربع عشرة، أو ست عشرة. وقال بعضهم: والصواب الإضراب عن توقيف إسلامه؛ لأنه لم يكن مشركًا فيستأنف الإسلام... وقال: ويُقال: هو أول من أسلم مطلقًا، وأول من هاجر بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وينظر بحجة المحافل 73/1.

⁽¹⁾ عن ابن عمر قال: عرضت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أُحُدٍ وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يُجِزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني. البخاري 948/2، ومسلم 1490/3 رقم 1868، وأبو داود 362/3 رقم 2957، والترمذي 64/3 رقم 1361، وابن ماجه 850/2 رقم 2543، والنسائي 155/7 رقم 3431، وعبد الرزاق 368/7 رقم 36766، ومعاني الآثار 218/3.

⁽²⁾ انظر المناقب للكوفي: 295/1 ح 218، وأنساب الأشراف للمسعودي: ص 231-232.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

علاقته صلى الله عليه وآله وسلم بربه-3

تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم لكتاب الله:

القرآن كتاب الله الذي نزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد تكفل القرآن من خلال آياته المباركة بهداية الناس إلى الحق والعدل والخير في جميع شؤونهم «.. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء...»⁽¹⁾.

وقد شدد الإسلام على الاهتمام به، والاعتصام بحبله من خلال قراءته وتدبره، ووعي تعاليمه، وتحسيد مفاهيمه في الحياة الفردية والاجتماعية وغيرها.

قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138].

ونظرًا لمكانة القرآن في الإسلام فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد العناية به تلاوة وتعليمًا وحثًا على تعاهده ورعايته، وتدبر آياته، والحرص عليه.

وهذه بعض الروايات التي تشير إلى مدى اهتمامه صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن.

- كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يرقد حتى يقرأ المسبحات ويقول: في هذه السورة آية هي أفضل من ألف آية، قالوا: وما المسبحات؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سورة الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن»⁽²⁾.

- وعن أم هاني كنت أسمع قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالليل وأنا على عريشي⁽³⁾.

(1) أخرجه الترمذي 172/5 رقم 2906، وابن أبي شيبة 125/6 رقم 30007، والبخاري في مسنده، (البحر الزخار) 72/3، والبيهقي في شعب الإيمان 326/2 رقم 1935، و الدارمي 527/2 رقم 3332.

(2) أخرجه النسائي في السنن الكبرى 179/6 رقم 10551، وأبو داود 734/2 رقم 5057.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة 321/1 رقم 3672، وأحمد 261/10 رقم 26960، والنسائي 178/2 رقم 1013، وابن ماجه 429/1 رقم 1349، والطحاوي في شرح معاني الآثار 344/1، والطبراني في الكبير 411/24 رقم 998، 999.

• وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنابة⁽¹⁾.

• ولشدة تفاعله مع القرآن كان يبكي عندما يقرأ بعض آياته؛ فقد روى ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي: «اقرأ عليّ القرآن»، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أحب أن أسمع من غيري» فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41] قال صلى الله عليه وآله وسلم: «حسبك الآن» فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان⁽²⁾.

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم دؤوبًا على تلاوة كتاب الله شغوفًا به، فلم يترك القراءة حتى في حالات مرضه.

...

(1) أخرجه أبو يعلى 436/1 رقم 579، والطبراني في الأوسط 9/7 رقم 6697، ورقم 7039، وابن حبان 79/3 رقم 799، وابن الجعد في مسنده 25/1 رقم 59.

(2) الترمذي 238/5 رقم 3025، والبيهقي 231/10، وأبو يعلى 5/9 رقم 5069، وابن حبان 9/3 رقم 735، والطبراني في الكبير 81/9 رقم 8464، وفي الأوسط 164/2 رقم 1587، وفي الصغير 136/1 رقم 204، وابن أبي شيبة 226/7 رقم 35540.

(6) ما بين البعثة والهجرة / 1

الدعوة وتحديات قريش

مرت الدعوة الإسلامية في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ بعثته إلى وفاته بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: (الدعوة الهادئة للأفراد).

كانت دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في البداية تتجه نحو آحاد الناس بصورة هادئة بعيداً عن أجواء التحدي؛ وذلك حذرًا من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنياتها، فلم يكن صلى الله عليه وآله وسلم يُظهر الدعوة في المجالس العامة ل قريش، ولم يكن يدعو إلا من يغلب على الظن أنه سيؤمن به، فأمن به عدد قليل من الناس تبعًا، وكان هؤلاء يلتقون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم باستمرار، وكانوا إذا أرادوا ممارسة العبادة والصلاة تعرضوا للأذى، فكانوا يذهبون إلى شعاب مكة يستخفون فيها عن أنظار قريش، فصاروا يلاحقونهم إلى هناك، وبعد أن مرت ثلاث سنوات تقريبًا وصارت تحدث صدامات بينهم وبين المشركين الذين كانوا يرصدونهم ويتعمدون إيذاءهم اختار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم دار الأرقم بن أبي الأرقم في مكة ليلتقي بهم فيها، ولتكون مركزًا يمارسون فيه عبادتهم وصلاتهم بعيدًا عن أنظار قريش.

وبعد شهر من دخولهم دار الأرقم أمره الله تعالى بالجهر في دعوته وبإظهار دينه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94].

وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلًا وامرأة عامتهم من الفقراء. ولا ريب أن حكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته إلى الإسلام ودعوة الأفراد بصورة هادئة خلال هذه السنوات الأولى لم يكن بسبب الخوف على نفسه، بل خوفًا على مستقبل الدعوة من أي نشاط مضاد يقضي عليها وهي لما تكتمل، ولم تترسخ لكي تصمد أمام أي معارضة أو مواجهة سافرة قد تهددها بالفناء. فكانت نتيجة هذا الأسلوب الذي اتبعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته أمرين: الأول: عدم تعريض الطليعة المؤمنة لأي عمل مضاد يشل الحركة ويفكك ارتباطها ومن ثم يدفعها إلى التشرذم والضياع.

الثاني: توفير العدد الكافي من المؤمنين بالرسالة؛ لكي تتحمل مسؤولياتها في التغيير الإسلامي بجدارة وإيمان. ولذلك فإن هذه المرحلة كانت بمثابة إعداد نفسي وتربوية عقيدية وروحية جهادية لتلك الصفوة التي دخلت في الإسلام وكان لا بُدَّ منها ليتسنى للنبي القيام بمثل هذه التربية التي تُمكن المؤمنين من الصمود في وجه التحديات التي تنتظرهم.

المرحلة الثانية: (الدعوة العامة)

وفي هذه المرحلة استجاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94] وبدأ بتنفيذ أمر ربه بالدعوة العامة عبر خطوتين:

الخطوة الأولى: دعوة الأقربين من عشيرته وقومه، وهم بنو عبد المطلب إلى الإسلام وإبلاغهم رسالة الله تعالى تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

فعن البراء بن عازب قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] جمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العُسَّ⁽¹⁾، فأمر علياً فأتى برجل شاة فقال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا وشبعوا، ثم دنا بقعب من لبن فشرب منه، ثم قال: اشربوا على اسم الله، فشربوا حتى رووا، فبدرهم أبو لهب وقال: هذا ما سحركم به الرجل، فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. يومئذ ولم يتكلم، ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك الطعام والشراب، ثم أنذرهم ودعاهم إلى الإيمان فقال: «من يؤازرني ويؤاخي، ويكون وليي ووصيي بعدي، وخليفتي في أهلي». فسكت القوم، فقال علي: «أنا»، فأعاد ثلاثاً والقوم سكوت وعلي يقول كل مرة: أنا، فقال في المرة الثالثة: أنت. فقاموا يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أُمِرَ عليك»⁽²⁾.

إن الابتداء بذوي القربى والعشيرة يهدف إلى:

أولاً: تثبيت أولى دعائم الدعوة؛ لأنه إذا استطاع أن يستقطب عشيرته الأقربين إلى الإسلام يستطيع بعد ذلك أن يتوجه إلى غيرهم بقدم ثابتة وعزم راسخ وإرادة مطمئنة.

ثانياً: دفع أبناء عشيرته إلى الدفاع عنه بدافع القرابة على فرض أنهم لم يؤمنوا بدعوته.

ثالثاً: بلورة مدى استعداد البنية الداخلية من أقبائهم وقومه للوقوف إلى جانبه والتحمل معه؛ ليتم من خلال ذلك تقدير المواقف المستقبلية في مواجهة التحديات.

(1) المسنة: هي ذات حولين من البقر. والعُس: القمح الكبير.

(2) المصباح لأبي العباس الحسني ص 142-143، والكمال لابن الأثير 41/2، وتفسير ابن أبي حاتم 2826/9 رقم (1015)، ومسنند البزار 104/2 رقم 455، و19/3 رقم 76، ومسنند أحمد 236/1 رقم 883 بالفاظ وأسانيد مختلفة، وتاريخ الطبري 321/2 بلفظ: «أن يكون أخي وصاحي ووارثي». والبداية والنهاية 52/3، وتفسير الطبري 148/19/11، وتفسير ابن كثير 350/3، وسيرة ابن كثير 457/1. ولكن بلفظ: «أخي وكذا وكذا»، وكنز العمال 363/9 عن ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بلفظ: «أخي ووصيي وخليفتي فيكم»، والنسائي في الخصائص 76 رقم 36 بلفظ: «أخي وصاحي ووارثي»، ومسنند أحمد رقم 1371 بلفظ: «أخي وصاحي»، وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق 46/42 بهذا اللفظ، ولفظ: «على أن يكون أخي وله الجنة»..

رابعاً: التأكيد على أن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام من الآن فصاعداً ركن من أركان هذا الدين.

الخطوة الثانية: دعوة عامة للناس بمن فيهم قريش إلى الدخول في الإسلام.

فقد ذكر المؤرخون أنه بعد أن أُنذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشيرته الأقربين وانتشر أمر نبوته في وسط مكة بدأت قريش تتعرض للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالاستهزاء والسخرية والتكذيب، وكان من جملة الذين استهزأوا به عمه أبو لهب؛ فأنزل الله قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: 94 ، 95] وكانت هذه الآية تمثل الأمر بإعلان الدعوة أمام جميع الناس مهما كانت النتائج، وقد وعده الله فيها بأنه سيكفيه المستهزين ويتولى هو عز وجل أمرهم، فكانت الخطوة الثانية تنفيذا لأمر الله في الآية حيث صعد النبي على الصفا ونادى قريشاً وقبائل مكة فلما اجتمعوا قال لهم: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا فِي سَفْحِ جَبَلٍ قَدْ طَلَعَتْ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط، فقال: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَكُمْ مِنْ عِقَابِهِ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنفَعَةً وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيبًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»⁽¹⁾.

ردود فعل قريش:

كان رد فعل قريش أمام جهره صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة أن أدبروا عنه وتنكروا لدعوته وبدأوا يحاولون بشتى الأساليب القضاء على حركته، وأهم المحاولات التي قاموا بها هي:

1- مواجهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتكذيب والسخرية والاستخفاف والاستهزاء ورميه بأنواع التهم من قبيل ساحر ومجنون، وكان ذلك هو رد الفعل الأولي، ولم يصل رد الفعل هذا إلى حد المواجهة المباشرة، إلا أن استمرار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة وإصراره عليها من جهة وتعرضه لآلهة قريش وأصنامها من جهة أخرى واتساع نشاط النبي وتكاثر المسلمين باستمرار من جهة ثالثة جعل المشركين يشعرون بجديّة الموقف وخطورته والتفكير في محاولة جديدة بعيدة عن العنف فقرروا:

2- مفاوضة النبي ومساومته على الدعوة وقد مرت المفاوضات بثلاث جولات انتهت كلها بالفشل الذريع.

في الجولة الأولى: حاولت قريش استعطاف أبي طالب من أجل الضغط على ابن أخيه فقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أعلامنا، وضلل أبناءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فردهم أبو طالب ردّاً رقيقاً- على حد تعبير الطبري- فانصرفوا عنه وواصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوته.

وفي الجولة الثانية: تواصلت قريش بالشدة وعدم المهادنة في الموقف فجاءوا إلى أبي طالب وقالوا له: إنا كنا قد استنهيناك عن ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه آرائنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننزله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين، فوعدهم أبو طالب أن يبلغ ابن أخيه موقفهم فكان رد

(1) البخاري 1902/4 رقم 4687، ومسلم 194/1 رقم 208.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الرد الخالد: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه»⁽¹⁾.

وفي الجولة الثالثة: عرضوا على أبي طالب أن يعطيهم محمداً ليقتلوه ويأخذ هو في مقابلة عمارة بن الوليد أجمل فتى في قريش ليكون في رعايته وكفالاته بدل محمد، فرفض أبو طالب موجهاً لهم بقوله: لبئس ما تسومونني عليه أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً.

3- مفاوضة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومساومته مباشرة عن طريق إغرائه بالمال والجاه، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رفض عرضهم ورأوا فيه رجلاً من نوع آخر لا طمع له في مال ولا سلطان.

4- نهي الناس عن الالتقاء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستماع إلى ما يتلو من قرآن وقد تحدث القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: 26].

5- التعرض لشخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإيذاء المباشر من سفهاء قريش وعبيدهم، وأحياناً من زعمائهم ووجهائهم: كأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب وزوجته حتى قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أؤذي نبي ما أؤذيت».

6- اتباع سياسة القمع والتعذيب والتنكيل بالصفوة المؤمنة وخاصة بأولئك الفقراء والضعفاء الذين لا عشيرة تحميهم: كآل ياسر، وبلال الحبشي، وعامر بن فهيرة، ومصعب بن عمير وغيرهم.

وقد ضرب هؤلاء المثل الأعلى في الصمود والصبر والثبات والجهاد والتضحية من أجل العقيدة والمبدأ والحق.

7- استخدام سلاح الحرب الإعلامية والدعاية ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكل ما تقتضيه من مجادلة ومهاترة وترويح إشاعات كاذبة؛ فقد كانوا يروجون بين الوافدين إلى مكة أن هذا الرجل ساحر، وأنه يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، وأن ما يأتي به إنما يتعلمه عند رجل نصراني اسمه جبر، وقد رد عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِّسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [النحل: 103].

8- المقاطعة لبني هاشم وفرض حصار اجتماعي واقتصادي عليهم؛ فقد اجتمع المشركون في دار الندوة وكتبوا وثيقة اتفقوا فيها على البنود التالية:

1- أن لا يزوجوا أحداً من نسائهم لبني هاشم وأن لا يتزوجوا منهم.

2- أن لا يبتاعوا منهم شيئاً، ولا يبيعوهم شيئاً مهما كان نوعه.

3- أن لا يجتمعوا معهم على أمر من الأمور.

4- أن يكونوا يداً واحدة على محمد وأتباعه.

(1) المصاييح لأبي العباس الحسني ص 183، والبداية والنهاية 63/3، وابن هشام 285/1، وتاريخ الطبري 326/2، وعيون الأثر 189/1، وسيرة ابن كثير 463/1، 474، ودلائل النبوة للبيهقي 63/2 رقم (495)، والروض الأنف 6/2.

فقدّرت قريش أن هذه المقاطعة ستؤدي إلى أحد ثلاثة أمور: إما قيام بني هاشم بتسليمهم النبي ليقتلوه، وإما أن يتراجع النبي عن دعوته، وإما القضاء عليه وعلى جميع من معه جوعاً وعطشاً تحت وطأة الحصار.

استمرت المقاطعة ثلاث سنوات من السنة السادسة حتى التاسعة للبعثة وكان المسلمون خلالها ينفقون من أموال خديجة وأبي طالب، حتى نفدت واشتدت وطأة المقاطعة، ولم يكونوا يستطيعون الخروج من شعب أبي طالب إلا في موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة، فكانوا يشترون حينئذ ويبيعون ضمن ظروف صعبة جداً.

وكان أبو طالب (رضي الله عنه) يحرس النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه خوفاً من أن يتسلل أحد من المشركين إليه ويغتاله على حين غرة أو غفلة، بل كان إذا حل الظلام ينقل النبي من المكان الذي عرف أهل الشَّعب أنه بات فيه إلى مكان آخر ويجعل ابنه عليّاً عليه السلام في مكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا حصل أمر أصيب ولده دونه.

انتهت المقاطعة بعدما أكلت الأرضة ما في صحيفة المشركين التي تعاقدوا فيها على المقاطعة، وقيام جماعة منهم من تربطهم ببني هاشم علاقات نسبية بنقض الصحيفة وإلغاء مفاعيلها⁽¹⁾.

(1) طبقات ابن سعد 209/1، والروض الأنف 127/2، وعيون الأثر 222/1، والبداية والنهاية 108/3، وسيرة ابن هشام 379/1، والسيرة لابن كثير 49/2.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

علاقته صلى الله عليه وآله وسلم بربه-4

أذكاره وتسبيحه:

- كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ذكر الله بل ما فارق ذكر الله شفّيته المباركتين قط، ولم يُر إلا ذاكراً مسبحاً أو شاكراً مستغفراً.
- روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يكثر من قول: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**». وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا جلس في المجلس فأراد أن يقوم قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وأشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**»
- ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً**».
- وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يقوم من مجلس وإن خف حتى يستغفر الله خمساً وعشرين.
- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر الله عز وجل في كل يوم سبعين مرة ويتوب إلى الله عز وجل سبعين مرة.
- وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**إِنَّ لِلْقُلُوبِ صَدَاءً كَصَدَاءِ النُّحَاسِ فَأَجْلُوهَا بِالْإِسْتِغْفَارِ**».
- وكما كان دائم الاستغفار كان دائم الشكر لله سبحانه على كل حال.
- فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه أمر يسره قال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**» وإذا أتاه أمر يكرهه قال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**». وعنه عليه السلام قال: ما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نوم قط إلا خرّ لله عز وجل ساجداً.
- وعنه عليه السلام كان النبي في كل يوم إذا أصبح وطلعت الشمس يقول: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَثِيرًا طَيِّبًا عَلَى كُلِّ حَالٍ**» يقول ثلاثمائة وستين مرة شكراً.

(7) ما بين البعثة والهجرة / 2

مواجهة تحديات قريش

اتبع صلى الله عليه وآله وسلم في مواجهة محاولات قريش للقضاء على الإسلام الخطوات التالية:

- 1- رفض كل أشكال المساومات والضغط، والإصرار على الاستمرار في الدعوة، والثبات والصبر على الأذى والتحديات.
- 2- الاتصال الشخصي والمباشر بكل الأفراد والجماعات الوافدة إلى مكة وعرض الإسلام عليهم وعلى سائر القبائل، خاصة في المواسم، فكان لا يسمع بقادم إلى مكة له اسم وشرف ونفوذ إلا وبادر إلى اللقاء به، وكان لا يدع مناسبة يجتمع فيها الناس إلا قصدهم إلى أنديتهم ليدعوهم إلى الله.
- 3- توسيع دائرة الدعوة إلى خارج مكة، وذلك من خلال أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة وخروجه هو صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف، وإنجاز بيعة العقبة.

الهجرة إلى الحبشة

هاجر المسلمون إلى الحبشة في رجب من السنة الخامسة للبعثة بعدما أمرهم النبي بذلك وقال لهم: إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وكان عددهم في أرض الحبشة ثلاثة وثمانين ما بين رجل وامرأة عدا الأطفال، وكان في مقدمتهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونعتقد أن الهدف من هذه الهجرة:

أَوَّلًا: التخلص من الضغوط وسياسة القمع والتعذيب التي كان يتعرض لها المسلمون داخل مكة، وإيجاد مكان آمن للمسلمين ولكل من يدخل في الإسلام يستطيعون فيه ممارسة شعائهم بحرية بعيدا عن أذى قريش ومضايقاتها واضطهادها.

ثانيًا: التبشير بالإسلام ومبادئه وأهدافه وأحكامه، والترويج له والتعريف به خارج الجزيرة العربية، بدليل: هجرة جماعة ممن لم يتعرض للتعذيب أو التنكيل كجعفر بن أبي طالب من جهة، وبقاء المهاجرين في الحبشة إلى ما بعد السنة الثالثة أو السابعة⁽¹⁾ بعد الهجرة النبوية إلى المدينة من جهة أخرى.

(1) المشهور في كتب السير أن المهاجرين أقاموا بأرض الحبشة عند النجاشي في أحسن جوار؛ فلما سمعوا بمهاجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثمان نساء فمات منهم رجلان بمكة وحبس بمكة سبعة نفر، وشهد بدرا منهم أربعة وعشرون رجلا، فلما كان شهر ربيع الأول وقيل: المحرم سنة سبع من هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى النجاشي كتابا يدعو فيه إلى الإسلام، وكتب إليه أن

ثالثًا: توجيه ضربة لكبرياء قريش، ولتدرك أن قضية الإسلام تتجاوز حدود تصوراتها وقدراتها، وأن المسلمين قادرون على تجاوز حدود الوطن والتخلي عن كل شيء في سبيل إنقاذ عقيدتهم وإسلامهم.

الخروج إلى الطائف

خرج النبي إلى الطائف في السنة العاشرة من البعثة وأقام فيها عشرة أيام يتجول بين أحيائها ويدعو أهلها إلى الإسلام، ولكنهم لم يسمعو له بل آذوه وسخروا منه، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجعًا إلى مكة. وقد كان يهدف صلى الله عليه وآله وسلم من الانتقال إلى الطائف إلى الإعداد للمستقبل؛ باعتبار أن الطائف هي البلد الثالث الذي له موقعه ونفوذه الخاص في المنطقة؛ نظرًا لوجود قبيلة كبيرة فيها هي ثقيف، فلا بُدَّ من التمهيد لإسلامهم في المستقبل.

وربما تكون ثمة أهداف أخرى منها: إيجاد قاعدة ارتكاز لدعوته في الطائف بدل مكة، بعد أن وجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن مكة لا تصلح أن تكون قاعدة لعمله الرسالي، وخصوصًا بعدما أثرت عمليات التعذيب والإرهاب التي مارستها قريش بحق المسلمين على نشاط النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحد من انتشار الإسلام بين الناس.

بيعة العقبة

بعد أن عاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الطائف استأنف جهوده عند حلول موسم الحج متنقلًا بين وفودها حيث اجتمع بستة من أهل يثرب (المدينة) في السنة الحادية عشرة من البعثة فدعاهم لرسالته، فأمنوا به، وأقسموا أن يعملوا في سبيلها عند عودتهم إلى بلدهم.

ولم يكن اجتماعه هؤلاء الستة عملاً عفويًا بل كان مقصودًا حيث اجتمع بهم بشكل شبه سري، وركز على عدد محدود، لا كما فعل مع باقي الوفود حيث كان يدعوها علانية.

وكان هدف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الاجتماع هو حث هؤلاء الأشخاص على القيام بنشاط في بلادهم لتهيئة الجو وخلق مناخ مؤيد ومتعاطف مع الدعوة ومبادئها الجديدة في المدينة.

يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكتب إليه أن يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه ويحملهم ففعل فجاءوا حتى قدموا المدينة. ينظر عيون الأثر 156/1، ونور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص 152.

العقبة الأولى:

وعندما حل موسم الحج في العام الثاني أي في السنة الثانية عشرة من البعثة التقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع اثني عشر رجلاً من اليثريين واجتمع بهم سرّاً في وادٍ ضيق بالعقبة بين مكة ومنى، وهي العقبة الأولى، وقد أعلنوا فيها إيمانهم واستعدادهم للعمل على نشر الإسلام، وبايعوا النبي على ذلك⁽¹⁾.

فلما أرادوا الانصراف إلى بلدتهم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معهم مصعب بن عمير من أجل أن يعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويجعل منهم قوة أكثر فاعلية ودقة في نشر الدين الجديد في صفوف أهل المدينة.

استطاع مصعب بن عمير - بفعل وعيه وخبرته بشتى أساليب العمل والتبليغ - أن يقوم بواجبه كما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عدد المسلمين في المدينة يزداد يوماً بعد يوم، وأصبح جو المدينة العام مؤيداً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومهيئاً لقدومه.

العقبة الثانية:

وفي العام التالي أي في السنة الثالثة عشرة من البعثة وبعد مرور عام كامل على بيعة العقبة الأولى عاد مصعب بن عمير إلى مكة ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين.

ويبدو أن مصعباً قبل حضوره إلى مكة كان قد رتب اجتماعاً بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين مسلمي يثرب بعد انتهاء موسم الحج، فالتقى بعضهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وواعدهم أن يجتمع بهم في العقبة في اليوم الثاني من أيام التشريق ليلاً، وأمرهم بالحفاظ على سرية الاجتماع، وفي الليلة المعينة تم الاجتماع بحضور علي عليه السلام والحزمة في الدار الذي كان ينزل فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو دار عبد المطلب، فبايعوه على حمايته، وعلى أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وعلى أن ينصروه ويقفوا إلى جانبه في الشدة والرخاء، كما بايعوه على السمع والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن يدعوا إلى الله ولا يخافوا في الله لومة لائم، وقد سميت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية، وبذلك بدأ الأمل يشرق على القلوب بوجود حاضنة جديدة لدين الإسلام والرسول الخاتم.

لقد نجح النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نهاية المطاف بفعل إصراره على مواصلة الدعوة وعدم يأسه أو استسلامه أمام الفشل الظاهري في الطائف وفي مكة، وبفعل الثقة بوعد الله سبحانه بالنصر في إيجاد القاعدة المناسبة التي يركز عليها الإسلام فكانت يثرب موضع اختياره الجديد.

وكانت بيعة العقبة هي الخطوة الرئيسية التي مهد فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم للهجرة إلى المدينة المنورة.

وبالهجرة إلى المدينة تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي مرحلة بناء الدولة، والدفاع عن الإسلام.

(1) ابن هشام 73/2، وابن كثير 178/2، والكمال 66/2، والطبري 356/2.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

سلوكه الشخصي-1

كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان أجود الناس كفًا، وأجراً الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة - لأول مرة- هابه، ومن خالطه فعرفه أحبه، لم أر مثله قبله ولا بعده»⁽¹⁾

وعن يونس عن الحسن قال: سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: كان خلقه القرآن.

ومن صفاته الكريمة: كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يمنع الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويسلم على من استقبله من غني وفقير وكبير وصغير، ولا يحقر ما دعي إليه، ولو إلى حشف التمر، وكان خفيف المؤونة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسامًا من غير ضحك، ومحزونًا من غير عبوس، متواضعًا من غير مذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب، رحيمًا بكل مسلم، ولم يتجشأ من شبع قط، ولم يمد يده إلى طمع قط.

وقال العلماء في أخلاقه الفردية: كان صلى الله عليه وآله وسلم أسخى الناس على الإطلاق.

وكان يجلس على الأرض وينام عليها، ويأكل عليها، وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويفتح الباب، ويحلب الشاة، ويعقل البعير فيحلبها، ويطحن مع الخادم إذا أعيا (تعب).

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضا، وكان أصبر الناس على أوزار الناس.

وكان إذا أكل سمى، ويأكل بثلاث أصابع، ومما يليه، ولا يتناول من بين يدي غيره، ويؤتى بالطعام فيشرع قبل القوم ثم يشرعون وذلك لكي لا يستحي أحد من تناول الطعام إذا هو كف عنه.

وما ذم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طعاما قط، وكان إذا أعجبه أكله وإذا كرهه تركه، بل في بعض الروايات كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، وما رأي يأكل متكئًا قط.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من طعامه يغسل يديه من الطعام حتى ينقيها فلا يوجد لما أكل ربح.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة 328/6 رقم 31805، والخطيب 30/11، والبيهقي في الشعب 148/2 رقم 1415. وروي بلفظ:

أرحب الناس صدرًا، ولفظ: أوسع الناس صدرًا، ولفظ: أشرح الناس صدرًا، ولفظ: أجود الناس صدرًا.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يلبس ثوبين ويلبس الغليظ من القطن والكتان، إذا لبس جديدا أعطى خلف ثيابه مسكينا.

وكان يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويناوهم بيده، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس. وكان يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار.

...

(8) الهجرة إلى المدينة

بعد بيعة العقبة سمح النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين وخاصة لأولئك الذين كانوا يتعرضون للإيذاء والضغط بالهجرة إلى المدينة، وقال لهم فيما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا وَدَارًا تَأْمَنُونَ بِهَا»**.

فأخذ المسلمون يتوافدون إلى المدينة أفرادًا وجماعات، سرًا وعلانية، مضحين بوطنهم وبعلاقاتهم وكثير منهم بمتلكاتهم ومكانتهم في مجتمعهم الجاهلي في سبيل عقيدتهم ودينهم.

ورأت قريش في هذه الهجرة خطرًا على وجودها ومستقبلها؛ لما يشكله المهاجرون مع أهل المدينة من قوة تستطيع أن تقف في وجه قريش ومصالحها، خاصة أن تجارتها إلى الشام تمر عبر المدينة، فأخذت تمنع المسلمين من الهجرة وتلاحقهم وتُلحق العذاب والإرهاب بكل من كان يقع في قبضتها.

وبرغم كل هذه الإجراءات تمكّن معظم المسلمين من الهجرة ولم يبق في مكة بعد بيعة العقبة بفترة وجيزة سوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام وعدد قليل من المسلمين المستضعفين.

بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة ينتظر الإذن الإلهي بالهجرة وشعرت قريش بحجم الخطر فيما لو التحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه خاصة بعدما قدّرت أن المدنيين سيحمونه وينصرونه بكل طاقاتهم بعدما بايعوه على السمع والطاعة والجهاد، فاتخذت قرارًا حاسمًا بالتخلص من النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل فوات الأوان، واستطاعت أن تنتزع قرارًا بمشاركة كل قبائل قريش في عملية الاغتيال من أجل أن يتفرق دمه في القبائل كلها فلا يعود بإمكان بني هاشم أن يثأروا لدمه.

ولكن الله أخبر رسوله بهذه المؤامرة وأمره بالخروج ليلاً من مكة وأن يجعل عليًا عليه السلام مكانه لبيت على فراشه من أجل التمويه والإيهام، ليفوّت عليهم كيدهم، فخرج رسول الله إلى غار ثور، وعندما اقتحم المشركون دار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجدوا أنفسهم أمام علي عليه السلام!.

لقد نفّذ الإمام علي عليه السلام أوامر الله ورسوله بكلّ إخلاص وتضحية وشجاعة، وباع نفسه ليُشري مرضاة الله، فنال بذلك شرف الثناء الإلهي ومدح الوحي، فكان مثلاً للتضحية والفداء، وقُدوة في الشجاعة والثبات، وفي علي عليه السلام وموقفه الفدائي نزل قول الله تعالى: **﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾**. [البقرة : 207]

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج قبل ذلك من بينهم وهو يقرأ هذه الآية: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾** [يس: 9] وتوجه نحو غار ثور حيث بقي في الغار ثلاثة أيام إلى أن تمكن من الوصول إلى قرية قباء في المدينة المنورة برغم ملاحقة قريش له.

وقد تحدث القرآن عن ذلك بقوله تعالى: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَبِمَكْرُونٍ وَمَكْرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [الأنفال: 30].

وقال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

وكانت هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع الأول بعدما كان أمضى ثلاث عشرة سنة في مكة وكانت هذه الهجرة بداية التاريخ الإسلامي⁽¹⁾.

دوافع الهجرة

لم تكن الهجرة إلى المدينة رد فعل لاضطهاد قريش بل كانت فعلاً خطط له النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لتكون المدينة قاعدة ارتكاز للدعوة.

وأهم الدوافع التي أدت للهجرة هي:

أولاً: إن مكة لم تعد مكاناً صالحاً للدعوة؛ فقد حصل النبي منها على أقصى ما يمكن الحصول عليه، ولم يبق بعد أي أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد في المستقبل القريب على الأقل، خصوصاً بعدما نجحت قريش في وضع الحواجز والعراقيل الكثيرة أمام تقدم هذا الدين وانتشاره، لذلك كان لا بُدَّ من الانتقال إلى مكان آخر ينطلق الإسلام فيه بحرية بعيداً عن ضغوط قريش، وفي منأى عن مناطق سيطرتهم ونفوذهم.

وثانياً: إن الإسلام دين كامل ونظام شامل يعالج في تشريعاته جميع جوانب الحياة وهو للبشرية جمعاء، وما حصل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة بعد ثلاث عشرة سنة لا يمكنه من تطبيق كافة تشريعات الإسلام على البشرية كلها، وتحقيق كامل أهدافه، ولا سيما بالنسبة إلى ذلك الجانب الذي يعالج مشاكل الناس الاجتماعية والسياسية وغيرها، مما يحتاج إلى السلطة في مجال فرض القانون والنظام، فكان لا بُدَّ من الانتقال إلى ساحة أخرى يستطيع النبي فيها إقامة الحكومة التي تضمن تطبيق النظام الإسلامي في الحياة وتحقيق أهدافه الكبرى ونشره في كافة البلاد وإبلاغه إلى جميع العباد.

سر اختيار المدينة:

كانت المدينة مهيأة جغرافياً واجتماعياً واقتصادياً لتكون قاعدة صلبة للإسلام:

1- فمن الناحية الجغرافية تبعد المدينة عن مكة أكثر من أربعمئة كيلو متراً مما يجعلها بمأمن من هجمات قريش المفاجئة والمباغتة من جهة، ومن جهة أخرى هي قريبة من طريق تجارة مكة الشام بحيث يتمكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المضي في طريقه دون عوائق.

(1) ابن هشام 1/123، والبداية والنهاية 3/214، والكمال 2/71، ومغلطاي 153، والطبري 2/376، ومجمع الزوائد 6/62، ومروج الذهب 2/286، والمصابيح لأبي العباس الحسيني ص 229، والسيرة لأحمد الشرنوبلي ص 69، وعيون الأثر 1/286، والسيرة النبوية لابن كثير 2/226، وطبقات ابن سعد 1/227، والروض الأنف 2/229، والسيرة الحلبية 2/27.

وآله وسلم من فرض سيطرته وممارسة نوع من الضغط السياسي والاقتصادي وحتى العسكري على قريش في الوقت المناسب.

2- ومن الناحية الاجتماعية فإن طول النزاع القبلي بين سكانها من الأوس والخزرج واليهود جعلها منطقة مفككة اجتماعيًا فكما أنها لا تستطيع أن تتماسك أمام قوة الإسلام فإنها كانت تتطلع إلى رجل تلتف حوله لينزع عنها إلى الأبد هذه العصبية المستعصية.

3- ومن الناحية الاقتصادية تعتبر المدينة غنية بإمكاناتها الزراعية بما يمكنها من المقاومة والاحتفاظ بنوع من الحياة في حال تعرضت لضغوط اقتصادية من قبل المشركين وغيرهم.

«أصبحت المدينة جاهزة لاستقبال الرسول والرسالة، حظي أهل يثرب (الأوس والخزرج القبيلتان اليمانيتان) بالشرف أن يكونوا هم الذين اختارهم الله لحمل هذه الرسالة بدلاً من قريش ومكة التي عصت وأبت وتمردت، وترك رسول الله مكة رغم قداستها، وبرغم أهميتها، برغم وجود بيت الله الحرام فيها، وأصبح خادم الحرم - الذي يتزعم الوضع في مكة ويزعم أنه الأولى بالله وبيته وبدينه وبكل شيء - أصبح أبا جهل وأبا سفيان ومن معهم، وأبا لهب وغيرهم من المشركين، وترك الرسول مكة ببيتها الحرام وبكل ما فيها وذهب إلى المدينة، بنى في المدينة مسجداً بيتاً لله تتحرك منه رسالة الإسلام.

وقام بخطواته بعد أن وصل إلى المدينة: من بناء المسجد، من الإخاء بين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين كمؤمنين، الوثيقة التي نظم بها الوضع في تعايش سكان المدينة، وتعزيز الروابط بينهم ليلتفوا حول الإسلام، والتعايش حول دولة الإسلام التي سببها هناك، بدأت مرحلة جديدة بُني فيها كيان الإسلام بشكلٍ عظيم، وكانت مرحلة الهجرة هي مرحلة ميلاد الأمة، ولهذا اختيرت للهجرة»⁽¹⁾.

(1) المحاضرة الخامسة للسيد عبد الملك بدر الدين بمناسبة المولد النبوي عام 1439هـ.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

سلوكه الشخصي-2

نموذج النظافة وحسن المظهر:

• كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الاهتمام بالطهارة والنظافة؛ فلم يكن يماثله أحد في نظافة جسمه وملابسه وطيب رائحته.

فقد كان يغتسل في أغلب الأيام معتبراً ذلك جزءاً من العبادات، وكان يداوم على الوضوء؛ ليبقى على طهارة حتى ورد عن بعض أصحابه ما رأيت أوضأ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يغسل رأسه الذي كان يصل إلى شحمة أذنه بماء السدر، ويمشطه ويدهنه بزيت البنفسج ويعطر جسده وملابسه بالمسك، وكان يعرف في الليلة الظلماء -قبل أن يرى- بالطيب فيقال: هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان يحب الطيب ويهتم به كثيراً؛ وقد ورد عن أنس بن مالك: صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين وثممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان صلى الله عليه وآله وسلم ينظف أسنانه بالمسواك عدة مرات في اليوم ولا سيما عند الوضوء وقبل النوم وعند الاستيقاظ منه.

• كان يغسل يديه وفمه قبل تناول الطعام وبعده، متجنباً أكل الخضروات الكريهة الرائحة، وكان شديد العناية بمظهره وهندامه؛ فقد روي أنه كان يتجمل لأصحابه فضلاً عن تجمله لأهله.

• وكان يوصي أصحابه وأتباعه أن يلزموا نظافة أبدانهم وملابسهم وأن يعتنوا بمظهرهم الخارجي. وذات يوم رآته إحدى زوجاته وهو ينظر في ركوة فيها ماء في حجرتها ويسوي فيها جمته (شعر رأسه)؛ إذ لم يكن لديه مرآة ينظر فيها، وهو خارج إلى أصحابه، فقالت: بأبي وأمي تتمراً في الركوة وتسوي جمتك وأنت النبي وخير خلقه؟!

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَبْدَهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى إِخْوَانِهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ وَيَتَجَمَّلَ».

وعن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَبْدَهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى

إِخْوَانِهِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لَهُمْ وَيَتَجَمَّلَ» يعضده قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:

31]، وقوله عز قائلًا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11] ⁽¹⁾

...

(1) شفاء الأوام 193/3.

(9) بناء الدولة المجتمع السياسي الإسلامي

باشر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فور وصوله إلى المدينة المنورة بأعمال تأسيسية ترتبط ببناء المجتمع السياسي الإسلامي، وبمستقبل الدعوة الإسلامية وأبرزها:

أولاً: بناء المسجد:

وكان يعمل فيه بيده الشريفة إلى جانب المسلمين حتى أتموا بناءه، والمسجد هو أول مركز عنى النبي بإنشائه، وقد كان مركزاً للعبادة والتعليم والحكم، والإدارة، وبقي كذلك زمنًا طويلاً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يكن لحكومة النبي مقر خاص، وكان المقر العام الوحيد في الدولة هو المسجد، ولا تذكر المصادر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مارس مهمات حكومية وإدارية - في حال كونه في المدينة - في مكان آخر غير المسجد.

وأول مسجد بني في الإسلام هو مسجد قباء في قرية قباء القريبة من المدينة، حيث كانت محطة النبي الأخيرة في رحلة الهجرة قبل دخوله إلى المدينة وهو المسجد الذي أشار إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدَ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: 108].

إن اهتمام الإسلام بالمسجد وإعطائه هذه الأولوية إلى درجة أن يكون أول عمل يقوم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قباء ثم في المدينة المنورة يدل على أن الإسلام يريد منا أن نتعامل مع المسجد كمركز روحي وثقافي وجهادي، كما تعامل معه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ينبغي أن يبقى محلاً للعبادة والتربية والتعليم، ومكاناً للتعارف والتآلف والوحدة بين المسلمين، ومركزاً يتخرج منه المجاهدون في سبيل الله.

ثانياً: المؤاخاة:

في سبيل ترجمة الرؤية النظرية في الإسلام إلى واقع معاش، وفي سبيل التمهيد لولادة الأمة الجديدة بتركيب مجتمعي ذي صيغة منظورة ذات ملامح، وفي سبيل تأكيد وحدة المسلمين والتغلب على التناقضات الداخلية القائمة بين الأوس والخزرج، والتناقضات المتوقعة بين المهاجرين والأنصار، وفي سبيل تحطيم الاعتبار الطبقي القبلي والاقتصادي، وعلاج مشكلة التفاوت في المستوى المعيشي والتعبير العملي عن مبدأ المواساة والعدالة الإسلامية، إلى جانب تعميق العلاقة الإيمانية بين المسلمين؛ أقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أول خطوة تنظيمية للمجتمع الجديد هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه من المهاجرين والأنصار بعد خمسة أو ثمانية أشهر من وصوله إلى المدينة وقال لهم: تأخروا في الله أخوين أخوين، فتأخى هو صلى الله عليه وآله وسلم مع علي بن أبي طالب حيث أخذ بيده وقال: هذا أخي، وأخى بين المسلمين وكان يؤاخي بين كل ونظيره⁽¹⁾.

وهذه هي المؤاخاة الثانية، وكانت المؤاخاة الأولى في مكة بين أصحابه من قريش ومواليهم (العبيد المعتقين) فتأخى بين عمه حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وبلال مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وقد آخى بينهم على الحق والمواساة. وكان الهدف الذي توخاه الإسلام من هذه الأخوة هو أن يتحول المسلمون الأولون من مجتمع مفكك يعيش أبنائه الأحقاد والبغضاء والعداوة إلى مجتمع متماسك متآلف يعيش المحبة والمودة.

وكانت لهذه الخطوة -المؤاخاة- نتائج مهمة على المستوى الجهادي في تاريخ المواجهة مع أعداء الإسلام؛ فقد استطاع المسلمون المتآخون تحقيق انتصارات كبرى في بدر والخندق وغيرها برغم قلة العدد وبساطة العتاد، وقد امتن الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في بدر بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 62، 63].

ثالثًا: الصحيفة مع بداية الهجرة:

كان ثمة عدة طوائف من السكان في المدينة هم:

- 1- المهاجرون: الذين ضحوا بوطنهم وأموالهم وعلاقاتهم طلبا للحرية وحرصا على دينهم فهاجروا من مكة إلى المدينة.
 - 2- الأنصار: وهم سكان المدينة الأصليون من قبيلتي الأوس والخزرج القبيلتان اليمانيتان الذين أحبوا رسول الله ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.
 - 3- المشركون: من قبيلتي الأوس والخزرج ومن قبائل عربية أخرى ذكر منهم عشائر: خطمة، بنو واقف، بنو سليم.. وهؤلاء كانوا على الكفر أول الهجرة، وتأخر إسلام كثير منهم إلى السنة الرابعة للهجرة.
 - 4- المتهودون: الذين كانوا قد تهودوا لمجاورتهم خيبر وقريظة والنضير.
 - 5- اليهود الأصليون (من أصل إسرائيلي) الذين أتوا من فلسطين وسكنوا ضواحي المدينة وهم: قينقاع، وقريظة، والنضير، ويهود خيبر.
- هذه الطوائف الخمس كانت تعيش في المدينة ومحيطها في بداية الهجرة وكانت العلاقات فيما بينها على العموم متوترة وغير مستقرة، كما كان الوضع قلقًا ومشكوكًا فيه.

(1) المستدرك 14/3، وسيرة ابن هشام 150/2.

وكان لا بُدَّ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يسعى لتنظيم المجتمع الإسلامي في إطار دولة يحكمها القانون الإلهي من أن يقوم بجملة من التدابير التنظيمية التي تجعل علاقات هذه الطوائف فيما بينها منضبطة في إطار القانون الجديد، وتقوم على أسس ومفاهيم وقواعد جديدة؛ من أجل أن يكسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خلال ذلك السلم بينه وبين الأطراف الأخرى، ويمنع أية علاقة مع قريش يمكن أن تضربه في يوم من الأيام فكانت وثيقة الصحيفة التي وضعها صلى الله عليه وآله وسلم بعد المؤاخاة في السنة الأولى للهجرة والتي عبر فيها عن الوضع الحقوقي، والعلاقات التنظيمية الإدارية والسياسية.. كانت هذه الوثيقة بمثابة دستور عملٍ لتنظيم علاقات المسلمين فيما بينهم وعلاقاتهم مع المتهودين في ظل الدولة الإسلامية الناشئة.

وقد تضمنت قواعد كلية وأساساً عملية في الحقوق والعلاقات أهمها:

- 1- أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس رغم اختلاف قبائلهم وانتماءاتهم.
 - 2- أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو قائد الأمة، وهو المرجع في حل المشكلات التي قد تحدث بين المسلمين وبين غيرهم.
 - 3- قررت الوثيقة أن مركز السلطة في المدينة هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو صاحب القرار دون سواه في السماح أو المنع من تنقل الأشخاص إلى خارج المدينة فلا يسمح لأحد من اليهود -أي المتهودين- بالخروج إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
 - 4- أن مسؤولية دفع الظلم تقع على عاتق الجميع، ولا تختص على من وقع عليه الظلم.
- منحت الوثيقة المتهودين في المدينة حقوقهم العامة كحق الأمن والحرية والمواطنة؛ بشرط أن يلتزموا بقوانين الدولة وأن لا يفسدوا ولا يتآمروا على الإسلام والمسلمين.

رابعاً: موقفه من اليهود:

شعر اليهود- وهم: قينقاع، والنضير، وقريظة، ويهود خيبر- بأنهم قد عزلوا عن أنصارهم من المتهودين بعد توقيع الصحيفة، حيث لم يدخلوا ضمن المعاهدة مباشرة إنما تبعوا للقبائل من الأوس والخزرج وزعامات قبلية يسري عليهم ما يسري عليها.

يقول السيد حسين بدر الدين «رضوان الله عليه»: «اليهود عاشوا فترة طويلة جداً بين العرب، وهم كانوا بأعداد كبيرة، كان أهل خيبر - أثناء حصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لخيبر - كان يُقال: أن عددهم نحو عشرين ألف مقاتل، هناك بنو قريظة، بنو قينقاع ويهود آخرون، هؤلاء أنفسهم لم يستطيعوا في تلك الفترة، وهم اليهود من يمتلكون المكر، ويمتلكون الطموح إلى إقامة دولة، ويعرفون أن تاريخهم كان فيه إمبراطوريات قامت لهم، وقامت لهم حضارة؛ فكانوا ما يزالون يَحْنُون إلى تكرار ذلك الشيء الذي فات عنهم، ولكن لم يستطيعوا، كانوا يحتاجون إلى أن يعيشوا في ظل حماية زعامات عربية وقبيل عربية، فكان اليهود كل اليهود حول المدينة معظمهم يدخلون في أحلاف

مع زعماء من قبائل المدينة وما جاورها، أي لم يستطع اليهود - فضلاً من أن يسيطروا - لم يستطيعوا أن يستقلوا في الحفاظ على أنفسهم، وأن يحققوا لأنفسهم أمناً»⁽¹⁾.

كما يقول السيد حسين بدر الدين أيضاً: «وبالرغم مما في كتب السيرة من الحديث عن صلح وقع منه مع اليهود!». إلا أنك عندما ترجع إلى الوثيقة التي صاغها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فور وصوله المدينة المنورة- تجد أنه ذكر فيها كل بطون وبيوتات القبائل الساكنة في المدينة وحولها، و ليست بصدد الصلح مع اليهود.

اليهود كانوا حول المدينة حلفاء لبيوت أو أشخاص من الأوس والخزرج داخل المدينة، مرتبطين بمعاهدات معهم؛ باعتبارهم حلفاء يسري على اليهود ما يسري على حلفائهم. وهذا شيء طبيعي في الموائيق وفي المعاهدات العربية أنه يسري على الأولياء - الذين يسمونهم ولي آل فلان أو حليف آل فلان - يسري عليهم ما يسري على من هو في حلفه، أو في ولائه، أو في معاهدة معه.

فمن العجيب أن يأتي كتاب السيرة ويعنونون الموضوع ب:(الصلح مع اليهود)! وعندما اتجه الرئيس المصري (أنور السادات) إلى القدس ليستسلم أمام إسرائيل ينطلق من علماء مصر لتبرير الموقف ليقولوا بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد صالح اليهود أول ما وصل المدينة؛ فنحن إنما نصالحهم كما صالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع الفارق الكبير من كل الوجوه بين ما وقع عندما وصل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وبين ما وقع من السادات عندما اتجه إلى القدس»⁽²⁾.

وفي الدرس الخامس من دروس رمضان يقول: «ولهذا لاحظ: هو حصل فعلاً في الإسلام معاهدات، وموائيق حصل مثلاً في مراحل في صدر الإسلام، في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً اتفاقيات معينة أو صلح معين على أن لا يعملوا كذا وأن لا يتآمروا وأن لا.. لكن القضية مرتبة، هناك فارق كبير جداً ما بين الموائيق والهدن والصلح الذي كان يتم في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين ما يحصل بينهم وبين العرب الآن، هناك فارق كبير.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعرف طبيعة هؤلاء الناس (اليهود) سيعمل معهم معاهدة، هدنة معينة، لكنه مجهز نفسه عندما ينقضون سيضربهم، ليس المعنى أنه عندما يدخل معهم في صلح أنه واثق بهم. لا... إنما هذه في نفس الوقت تجعلهم أمام واحدة من اثنتين: إما أن يكونوا أناساً يتقبلون ويندمجون في المجتمع المسلم ويذوبون فيه ويسلمون، أو متى ما ظهر منهم النقص الذي هو الشيء الطبيعي عندهم، فيكون معناه أنهم فتحوا على أنفسهم الثغرة ليُضْرَبُوا»⁽³⁾.

(1) ملزمة الثقافة القرآنية.

(2) ملزمة يوم القدس العالمي. باختصار.

(3) الدرس الخامس من دروس رمضان.

خامساً: إعداد القوة العسكرية:

لقد أقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على خطوة أخرى على طريق بناء الدولة وهي خطوة الإعداد العسكري، وإعداد القوة البشرية المدربة، وإعداد السلاح والخيول وغير ذلك مما تحتاجه القوة المسلحة، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [الأنفال: 60].

وقد نظم صلى الله عليه وآله وسلم المدينة على أساس عسكري، وكوّن من شعبها مجتمع حرب، فقسم المسلمين في المدينة إلى عرافات وجعل على كل عشرة عريفًا، وجعل من جميع الذكور البالغين جنودًا وكوّن منهم الجيوش والسرايا العسكرية.

وما يمكن استفادته من الروايات المتفرقة فيما يتعلق بتنظيم القوة العسكرية وإدارة المعارك الدفاعية في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الملامح التالية:

أولاً: القرار العسكري: إن القرار العسكري الاستراتيجي والتكتيكي كان بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده، ولم يكن لأحد من المسلمين سلطة اتخاذ قرار عسكري بشكل منفرد بعيداً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، نعم من الثابت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يستشير أصحابه وكان يستمع بعناية لأرائهم واعتراضات بعضهم في الشؤون العسكرية ولكن القرار الجهادي والعسكري النهائي كان له وحده.

ثانياً: تشكيل الجيش: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشكل الجيش والوحدات العسكرية من الذكور البالغين، وكان يختار للجنودية الذين بلغوا خمس عشرة سنة من العمر ولم يكن يقبل في عداد الجيش من لم يبلغ هذه السن.

فقد روي عن عبد الله بن عمر أنه قال: عُرضْتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جيش وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يقبلني ثم عرضت عليه في العام التالي وأنا ابن خمس عشرة فقبلني.

وروي مثل ذلك عن رافع بن خديج الذي استصغره النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ولكنه سمح له بالمشاركة في أُحُد بعدما كان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره.

وورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يستعرض شباب الأنصار في كل عام، وكان يسمح لمن تثبت لياقته البدنية بالانخراط في الجيش والمشاركة في الجهاد.

ثالثاً: التدريب: فقد كان شباب المدينة المنورة يتدربون على استعمال السلاح وفنون القتال، وكان في المدينة مكان مخصص للتدريب.

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه أمر بالتدرب على الفروسية والرمي، وقال فيما روي عنه: «علموا أولادكم السباحة والرمي وركوب الخيل».

وكان علي عليه السلام يعلم الناس الرمي في المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى أي حال فقد كان التدريب على السلاح وفنون القتال من مقومات الثقافة العامة للمجتمع الإسلامي آنذاك؛ بحيث كان يعتبر غير الخبير بفنون القتال شاذاً عن النمط العام.

رابعاً: لم يظهر من نصوص السيرة النبوية أن النبي أسس جيشاً متفرغاً على غرار ما يسمى الآن الجيش المحترف وهو: تفرغ عدد من المقاتلين لحياة الجندية مدة من الزمان في حال السلم، فلم يؤسس في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيش من هذا النوع، وإنما كان الانخراط الفعلي في العمل العسكري يتم حين تدعو الحاجة، أي حين يقرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم القيام بحملة عسكرية، وحين يتهدد المدينة خطر الغزو.

وعلى أي حال فإن هناك الكثير من النظم العسكرية في سيرة النبي غير ما ذكرنا من قبيل إحصاء عدد المسلمين لأغراض عسكرية، ومن قبيل التسليح العسكري والصناعات العسكرية، والاستطلاع العسكري، وغير ذلك من الملامح التي تكشف عن دقة التنظيم العسكري الذي كان له دور كبير في تحقيق إنجازات عسكرية كبرى في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فترة زمنية قصيرة نسبياً.

(10) الصراع المسلح مع قريش / 1

تقديم

بعد أن استقر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة ورتب أوضاعها الداخلية وتحذر الوجود الإسلامي فيها- بدأت مرحلة الدفاع عن الإسلام والجهاد ضد القوى الجاهلية وفي مقدمتها قريش واليهود، بعد أن أذن الله له بالقتال في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعَ صَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39، 40].

وقد واجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عسكريا ثلاث فئات من الأعداء هم:

1- المشركون (من قريش وغيرها من القبائل الأخرى).

2- اليهود.

3- النصارى (في حرب مؤتة وتبوك).

وللمؤرخين اصطلاحان في المعارك التي خاضها المسلمون في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم هما:

الغزوة ويقصدون بها: المعركة التي يحضرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه ويتولى هو قيادتها.

السرية وهي: المجموعة الجهادية التي لا يكون فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتولى أحد أصحابه قيادتها.

وقد أحصى المؤرخون عدد الغزوات والسرايا في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فبلغت أكثر من ثمانين بين غزوة وسرية، وكلها كانت في فترة ما بعد الهجرة.

أ- السرايا الأولى

بسبب اعتداءات قريش المتكررة على المسلمين بدأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فور تثبيت أسس الدولة الإسلامية الجديدة في المدينة صراعا مسلحا ضد الوثنية وزعيمتها قريش، تمثل بشن حروب متقطعة ضد القوافل والمواقع الوثنية، أطلق عليها المؤرخون اسم (السرايا الأولى).

وكانت أول سرية بعث بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد سبعة أشهر من الهجرة هي سرية حمزة بن عبد المطلب ومعه ثلاثون من المهاجرين لملاقاة بعض المشركين من قريش، لكن مجدي بن عمرو الجهني الذي كان موادعا للطرفين حال بينهما، فانصرفا من غير قتال.

وفي الشهر الثامن من الهجرة فصاعدا تتالت السرايات في مهمات عسكرية واستطلاعية فكانت سرية عبدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسرية سعد بن أبي وقاص، وسرية عبد الله بن جحش وغيرها، وقد تشكلت هذه السرايا

من المهاجرين دون الأنصار، وكان الهدف منها: إرباك قريش وحلفائها وإضعافهم وتحطيم معنوياتهم، وضرب نشاطهم التجاري الذي يمثل عصب حياتهم وشريان وجودهم، وإنذار أعداء الدولة الناشئة من غير قريش وحلفائها كاليهود في الداخل وجماعات البدو في الخارج بأن المسلمين قادرون على الرد ومستعدون للتصدي لأي عدوان يستهدف الإسلام وكيانه السياسي.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث سرية أو صاهم وعلمهم، فعن علي عليه السلام : «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ جَيْشًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعَثَ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا، ثُمَّ قَالَ: «انْطَلِقُوا بِسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، أَنْتُمْ جُنْدُ اللَّهِ، تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اذْعُوا إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، فَإِنْ آمَنُوا فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، لَهُمْ مَا لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَنَاصِبُهُمْ حَرْبًا، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِاللَّهِ، فَإِنْ أَظْهَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا لَا يُطِيقُ قِتَالَكُمْ، وَلَا تُغَوِّرُوا عَيْنًا، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرًا إِلَّا شَجَرًا يَصْرُكُمُ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِأَدْمِيٍّ وَلَا بِهَيْمَةٍ، وَلَا تَظْلِمُوا، وَلَا تَعْتَدُوا.

وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَقْصَاكُمْ، أَوْ أَدْنَاكُمْ، مِنْ أَحْرَارِكُمْ أَوْ عَبِيدِكُمْ، أَعْطَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَمَانًا، أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ بِإِشَارَتِهِ، فَلَهُ الْأَمَانُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ؛ فَإِنْ قَبِلَ فَأَخُوكُمْ فِي دِينِكُمْ، وَإِنْ أَبَى فَرُدُّوهُ إِلَى مَا مَنَعَهُ، وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِ، لَا تُعْطُوا الْقَوْمَ ذِمَّتِي وَلَا ذِمَّةَ اللَّهِ، فَالْمُخْفَرُ ذِمَّةُ اللَّهِ لَا قِيَّ لِلَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ سَاخِطٌ، وَأَعْطُوهُمْ ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ وَفُوا لَهُمْ؛ فَإِنْ أَحَدَكُمْ لَأَنْ يُخْفَرَ ذِمَّتُهُ وَذِمَّةُ أَبِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُخْفَرَ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ» (1).

وقد حققت هذه السرايا المنجزات التالية:

- 1- عقد تحالفات بين المسلمين وبين بعض القبائل المتواجدة في المنطقة بعدما شعرت تلك القبائل بقوة المسلمين، وقدرتهم على التحرك، وبتصميمهم على مواجهة حتى قريش بالحرب.
- 2- التدريب على القتال في ظروف جديدة تختلف عن ظروف معارك الجاهلية، وفي إطار موازين قوى مادية ومعنوية مختلفة.
- 3- استطلاع المناطق المحيطة بالمدينة وما فيها من مسالك وطرق مواصلات ومصادر مياه.
- 4- تهديد قريش بالحصار الاقتصادي عن طريق جعل ممرات تجارة قريش مع بلاد الشام مهددة وغير آمنة.
- 5- تثبيت هبة الإسلام والمسلمين بين القبائل المجاورة للمدينة.

ب- معركة بدر

(1) مجموع الإمام زيد ص 350.

كانت معركة بدر أول معركة مسلحة كبرى خاضها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون في مواجهة المشركين من قريش، وذلك يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان المبارك في السنة الثانية من الهجرة، قرب بدر على بعد حوالي مائة وستين كيلو مترا من المدينة فيما بينها وبين مكة المكرمة.

(بدأت قريش - أيضًا - تعد العدة للحرب العسكرية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبدأت بالتحضير لعملية عسكرية واسعة تستهدف النبي والمسلمين إلى المدينة، وبدأت ضمن خطواتها هذه بالإعداد الاقتصادي: أعدت لقافلة تجارية كانت من أهم القوافل التجارية، ومن أكبرها، لماذا؟ قالوا لتكون هذه القافلة: قافلة التموين للعملية العسكرية التي ستتحرك للقضاء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المسلمين في المدينة، وتحرك في هذه القافلة زعيمُ الشرك والمشركين (أبو سفيان) بنفسه، وهذا يدل على مدى الأهمية الكبيرة لهذه القافلة التجارية (قافلة التموين للعملية العسكرية)، وانطلقت هذه القافلة العسكرية، أو التجارية التي هي ذات طبيعة عسكرية ولهدف عسكري..⁽¹⁾).

خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه مستهدفين السيطرة على تلك القافلة، بغية التعويض على المسلمين مما أخذهم المشركون، وفرض حصار اقتصادي على قريش لعل ذلك يدفعها إلى الامتناع عن محاربة الدعوة والتأمر على الإسلام والمسلمين.

لقد كان قرار التصدي للقافلة ينطوي على احتمال تطور الموقف، وحصول مواجهة عسكرية ونشوب معركة حاسمة ومصيرية وهو ما حصل فعلاً.

فقد علم أبو سفيان بتحركه صلى الله عليه وآله وسلم فغير طريقه وأرسل إلى مكة يطلب النجدة من قريش فأقبلت قريش بأحقادها وكبريائها بألف مقاتل لحماية القافلة، وحين علمت قريش بنجاة القافلة حاول بعض قادتها أن يكتفي بذلك ويدعو إلى الانسحاب والعودة إلى مكة، إلا أن أبا جهل وغيره أصرَّ على العدوان، فقرروا الهجوم على المسلمين.

والتقى الجمعان في بدر، وبدأت المعركة بالمبارزة ثم التحم الجيشان وهما غير متكافئين لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد، ولكن الله أنزل الكثير من ألطافه ورحمته، فتدخلت يد الغيب، وجاء الإمداد الملائكي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فحقق الله سبحانه النصر للإسلام والمسلمين واندحرت قوة قريش، وتشتت جيشها بين قتيل وجريح وأسير؛ حيث أسفرت المعركة عن قتل سبعين من المشركين، وأسر سبعين، ولم يسقط من المسلمين سوى تسعة شهداء، وقيل: أحد عشر، وقيل: أربعة عشر شهيدا، ولم يؤسر منهم أحد.

وقد برز لعلي بن أبي طالب عليه السلام في هذه المعركة دور كبير، وظهرت شجاعته المتميزة بين صفوف المسلمين حيث رُوي أنه قتل بيده ثلث قتلى المشركين، وقيل: قتل نصفهم بيده وشارك الآخرين في قتل النصف الآخر⁽²⁾.

(1) من المحاضرة الخامسة بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف 11 ربيع أول 1439 هـ.

(2) اتفق المؤرخون وأصحاب السير أن عدد القتلى من المشركين سبعون، ولم تُحصَ أسماءهم كلهم؛ فقد أحصى الواقدي اثنين وخمسين قتيلًا، قتل الإمام علي أربعة وعشرين، شاركه في نفر منهم غيره، وذكر ابن هشام خمسين قتيلًا، اشترك الإمام علي في قتل واحد

لقد حقق المسلمون في بدر مكاسب مادية وأمنية وعقيدية وإعلامية أسهمت في خدمة الدعوة وتثبيت أركانها، وتحقيق نقلة نوعية في مجمل الأحداث في الجزيرة العربية.

ولعل أبرز نتائج هذه المعركة أنها:

- أولاً: عززت ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبتت إيمان بعض المترددين في إسلامهم.
- ثانياً: جعلت من المسلمين قوة مرهوبة الجانب عند القبائل المشركة واليهود في المنطقة.
- ثالثاً: شجعت الكثيرين على الدخول في الإسلام بعد أن كانت قريش تشكل الحاجز النفسي والمادي لهم.
- رابعاً: أضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب.
- خامساً: فتحت الأبواب أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الانطلاق بحرية أكبر في نشر الدعوة.
- سادساً: زادت من قوة التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار وعززت وحدتهما في مواجهة التحدي.

وأثبتت تجربة بدر:

أولاً: أن القلة المؤمنة المجاهدة الصابرة التي تملك إرادة قوية وعزيمة راسخة وإخلاصاً ووعياً وتخطيطاً تستطيع أن تحقق الانتصارات والإنجازات الكبرى بإذن الله حتى ولو كان العدو يملك الكثرة والقوة المادية الكبيرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 65، 66].

وعشرين رجلاً. الواقدي 152/1، وابن هشام 365/2، وشرح نهج البلاغة 425/4. وأسماء من قتلهم الإمام علي عليه السلام يوم بدر من المشركين أو اشترك مع غيره في قتلهم - من كتابي (المغازي) للواقدي، و(سيرة ابن هشام) - هم: 1- حنظلة بن أبي سفيان. 2- العاص بن سعيد. 3- الوليد بن عتبة بن ربيعة. 4- عامر بن عبد الله. 5- الحارث بن ربيعة. 6- نوفل بن خويلد. 7- النضر بن الحارث بن كلدة. 8- زيد بن مئيص مولى عُمير بن هاشم. 9- عمير بن عثمان بن عمرو من تميم. 10- يزيد بن تميم التميمي. 11- مسعود بن أبي أمية. 12- عبد الله بن أبي رفاع. 13- حاجز بن السائب بن عُمير بن عائذ. 14- منبه بن الحجاج. 15- نبيه بن الحجاج. 16- العاص بن منبه بن الحجاج. 17- أبو العاص بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم. 18- طعيمة بن عدي بن نوفل. 19- حرملة بن عمرو. 20- أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة. 21- عبد الله بن المنذر بن أبي رفاع. 22- معاوية بن عامر. وهؤلاء قتلهم بمفرده على اختلاف في بعضهم، قال الواقدي: فجميع من يُحصَى قَتْلُهُ تسعة وأربعون رجلاً منهم من قتله أمير المؤمنين علي عليه السلام، وشارك الإمام علي مع عمه الحمزة في قتل: 1- شيبة بن ربيعة. 2- عقيل بن الأسود بن المطلب.

وثانيًا: إن النصر بحاجة إلى عنصر روحي معنوي هو الإيمان بالله والإخلاص له، والاعتماد عليه والثقة به وغير ذلك مما يوفر للإنسان قوة روحية ومعنوية تبعده عن الشعور بالقلق والخوف والضياع أمام مواقف التحدي، وقد كان هذا العنصر حاضرا بقوة في بدر ومجاهديها، وقد أسهم بصورة أساسية في تحقيق الانتصار في هذه المعركة وفي كل المعارك التي خاضها المسلمون في مواجهة أعدائهم.

أسباب الانتصار:

ثمة أسباب عديدة تمخض عنها انتصار القلة على الكثرة في معركة بدر نعرض هنا لأهمها؛ لأنها يمكن أن تعد الأسباب النموذجية التي تفسر لنا الكثير من الانتصارات التي حققها المسلمون ضد أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعتادا ليس في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقط بل فيما تلاه من عصور وحتى عصرنا، وهذه الأسباب هي:

أولًا: المدد والعون والتوفيق الإلهي، ولأنها كانت أول معركة كبرى يخوضها المسلمون، ولأنها كانت مواجهة مع رموز الكفر وجبابرة الشرك على مستوى الجزيرة العربية، ومع ضعف العتاد وقلة العدد لدى المسلمين.. لذلك كان حجم التدخل الإلهي، والعناية الإلهية بما يتطلبه الوضع وحجم القضية.

ثانيًا: وحدة القيادة: فقد كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم هو القائد العام للمسلمين في معركة بدر وكان المسلمون يعملون كيدٍ واحدة تحت قيادته، يوجههم ويحدد لهم التكاليف للقيام بعمل حاسم، وكان انضباط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم نموذجًا رائعًا للانضباط الحقيقي، ومعنى الانضباط هو طاعة الأوامر وتنفيذها والقيام بالتكاليف المحددة بحرص وأمانة وعن طيبة خاطر.

ثالثًا: العقيدة الراسخة والمعنويات العالية: فقد تمتع المسلمون في بدر بروح معنوية عالية نابعة من عقيدة راسخة وإرادة قوية وإخلاص وتفان في سبيل الله قل نظيره، ولم تكن معنويات الذين خبروا الحرب ومارسوها طويلا عالية فحسب وإنما كانت معنويات الفتية الذين لم يمارسوا حربا ولا قتالا عالية أيضا.

لقد أثبتت بدر وكافة الحروب التي خاضها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحلل المقاتلون بالإيمان والتوكل والصبر والشجاعة والثبات والإخلاص والطاعة والوعي والتضحية والتعاون والإيثار والروحية العالية.

رابعًا: وضوح الهدف وسمو الغاية: فقد كان المسلمون في بدر يقاتلون في سبيل رضوان الله، وطلبًا للآخرة، وكانت لديهم أهداف واضحة يعرفونها ويؤمنون بها وهي إزالة كل الحواجز المادية من أمام الدين الجديد وترك الحرية الكاملة لهم لنشر الإسلام الذي يحرر الإنسان من العبودية للطاغوت لتكون كلمة الله هي العليا.

سلوكه الشخصي/3

شجاعته وثباته:

إذا أردنا أن نكون فكرة واضحة عن مدى شجاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلنستمع إلى شهادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يصف شجاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً».

وقال عليه السلام أيضاً: «كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه».

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: أغار المشركون على سرح المدينة فنادى فيها مناد: يا سوء صباحاه.. فسمعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجبل فركب في طلب العدو وكان أول أصحابه لحقه أبو قتادة على فرس له وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرج دفتاه ليف ليس فيه أشر ولا بطر، فطلب العدو فلم يلقوا أحداً وتتابع الخيل فقال أبو قتادة: يا رسول الله إن العدو قد انصرف فإن رأيت أن نستبق فقال: نعم، فاستبقوا فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سابقاً عليهم، ثم أقبل عليهم فقال: «أنا ابن العواتك»⁽¹⁾.

ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول: لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منا؟ فقال: دعوه، حتى إذا دنا منه.. وكان أبي قبل ذلك يلقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: عندي رمكة⁽²⁾ أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بل أنا أقتلك إن شاء الله فلما كان يوم أحد ودنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه فخدش خدشه فتدهده عن فرسه وهو يخور خوار الثور وهو يقول: قتلي محمد فاحتمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس، فقال: بلى لو

(1) العواتك: جمع عاتكة: يعني جداته صلى الله عليه وآله وسلم.

(2) الرَّمَكَةُ: الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل، معرب. لسان العرب 432/10.

كانت هذه الطعنة بريعة ومضر لقتلهم أليس قال لي: أقتلك؟ لو بصق علي بعد تلك المقالة لقتلني فلم يلبث إلا يوما حتى مات⁽¹⁾.

...

(1) مصنف عبدالرزاق 355/5، والبداية والنهاية 26/4، والحاكم 327/2، ومغلطاي 334/2، والبيهقي في الدلائل 258/3-259، وطبقات ابن سعد 46/2، وعيون الأثر 24/2.

(11) الصراع المسلح مع قريش / 2

ج- معركة أحد

استمرت أحداث بدر ومعركتها التاريخية تتفاعل حقداً وكيداً في نفوس المشركين في مكة، ولم يكن لدى أي سفيان قائد الشرك والعدوان آنذاك غير التفكير بالحرب ومعاودة الهجوم على المسلمين بدافع الثأر، وتحقيق نصر عسكري يغير الآثار النفسية والإعلامية التي أنتجتها معركة بدر.

فدق المشركون طبول الحرب وخططوا للعدوان والهجوم على المدينة، واتفقوا على أن ترصد أرباح القافلة التجارية التي أفلتت من قبضة المسلمين وقادت إلى معركة بدر لإسناد هذه الحملة العسكرية الآثمة.

زحف المشركون باتجاه المدينة وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل معهم العتاد والسلاح الكثير وأخرجوا النساء معهم؛ ليشجعن الجنود على القتال، فعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمسيرهم من خلال عيونه في مكة.

ويقال: إن العباس بن عبد المطلب أرسل إليه من مكة بذلك، فأعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم التعبئة العامة في صفوف المسلمين استعداداً للدفاع، وبث العيون ورجال الاستطلاع في المنطقة لجمع المعلومات، وبعد أن استشار أصحابه في سبل التصدي، قرروا مواجهة العدو خارج المدينة، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حوالي ألف مقاتل، غير أن المنافقين بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول انسحبوا قبل الوصول إلى ساحة المعركة، وكانوا ثلاثمائة؛ بحجة أن النبي خالف رأيهم الداعي إلى قتال المشركين من داخل المدينة.

فواصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسيرة الجهاد بسبعمئة مقاتل، والتقى الفريقان عند جبل أحد على بعد بضعة كيلو مترات من المدينة، في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة.

رسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خارطة المعركة، وحدد مواقع جيشه فوضع الرماة عند فتحة في الجبل، وكان عددهم خمسين رجلاً ليسدّ بهم ثغرة يمكن للعدو أن يتسلل منها، وليوفر حماية خلفية للجيش الإسلامي، وأمرهم بعدم ترك مواقعهم مهما حدث، فقال لهم فيما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«احموا ظهورنا فإن رأيتُمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتُمونا قد غنمنا فلا تشركونا»**.

وبدأت المعركة، وكان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، فاستولت قواتهم على ساحة المعركة، وانهمز العدو، وبدأوا بجمع الغنائم، فاستهوت الغنائم نفوس بعض الرماة، فتركوا مواقعهم، واندفعوا نحو الغنائم، مخالفين بذلك أوامر قائدهم الذي رفض مع قلة منهم أن يترك موقعه امتثالاً لتكليف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما أحدث ثغرة في صفوف المجاهدين، فاستغلها خالد بن الوليد أحد قادة المشركين آنذاك، فهاجم المجاهدين من خلفهم فتسبب هذا الهجوم ببعثرة الجيش الإسلامي وانهمازه أمام المشركين الذين استعادوا أنفاسهم بعدما تمكن خالد بن الوليد من قتل القلة التي بقيت على الجبل والالتفاف على المسلمين المنشغلين بجمع الغنائم، وصرخ صارخ: إن محمداً قد قتل، فتشتت المسلمون تحت وقع المباغلة، وتفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يثبت معه غير مجموعة من

أهل بيته وفي مقدمتهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي راح يقاتل إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتالاً شديداً ويصد كتائب المشركين ويفرقها ويجدل كماثها.

روي أنه لما انهزم الناس يوم أحد وبقي علي عليه السلام يجاهد عن الدين، ويعين بنفسه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقاوم القوم حتى فض جمعهم وانهزموا، فقال جبريل عليه السلام لرسول الله: **«إِنَّ هَذِهِ لَهِيَ الْمَوَاسَاةُ»** فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يا جبريل: **«إِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ»** فقال جبريل: **«وَأَنَا مِنْكُمْ»**⁽¹⁾ عندها عرج جبرائيل عليه السلام إلى السماء وهو ينادي: **«لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ وَلَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ»**.

ولما رأى المسلمون الفارون صبر وثبات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام وقوة جهادهما في سبيل الله وعرفوا أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقتل وهو يدعوهم إليه بدأوا يعودون تدريجياً إلى ميدان المعركة حتى اجتمعوا حوله صلى الله عليه وآله وسلم فطلب منهم أن يرجعوا إلى مراكزهم الأولى في القتال، تماماً كما في الخطة الأولى، فقاتلوا من جديد قتالاً شديداً وتمكنوا من صد هجمات المشركين المتواصلة، وأدرك المشركون استحالة إبادة المسلمين وتفتيتهم وتحقيق انتصار عليهم، وكانوا قد أصابهم التعب والجراح، فأثروا الانسحاب عائدين إلى مكة دون تحقيق أهدافهم⁽²⁾.

ومع ذلك فإن ما أصاب المسلمين في هذه المعركة كان خسارة فادحة، فقد سقط فيها حوالي سبعين شهيداً وفي مقدمهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وعدد كبير من الجرحى حتى إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصيب ببعض الجراح في وجهه، وبلغت جراحات علي عليه السلام نيفاً وستين جراحة، وقيل: أكثر من ذلك، بين طعنة ورمية وضربة أثناء دفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصده كتائب الأعداء.

لقد أصيب المسلمون بفعل النكسة في أخذ بصدمة عنيفة وحزن عميق وشعروا بالضعف والإحباط حتى كاد اليأس يتسرب إلى البعض، والشك إلى البعض الآخر.

وقد تعرض القرآن الكريم لبعض هذه المواقف وغيرها على النحو التالي:

1- استنكر القرآن حالات الوهن والحزن والإحباط التي أصابت المسلمين في أحد، وحاول أن يبعث الأمل في نفوسهم ويجدد عزيمتهم وإرادتهم ويعيد إليهم الثقة بأنفسهم، وذلك عن طريق التشجيع والمواساة فقال تعالى: **﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ فََرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فََرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾** [آل عمران: 139، 140].

(1) أخرجه أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة 656/2 رقم 1119، 1120، والطبراني في الكبير 1/ 318 رقم 941، والكوفي مناقبه 495/1 رقم 403.

(2) محاسن الأزهار 153، وتاريخ الطبري 514/2، والكمال لابن الأثير 107/2، وذخائر العقبى 74، وابن هشام 106/3، وسيرة ابن كثير 707/4، والبداية والنهاية 54/4، 6/6، وفرائد السمطين 251/1 رقم 194، 195، ومناقب ابن المغازلي 190، 191 رقم 234-236، وكفاية الطالب 277-280، والعمدة لابن البطريق 442 رقم 679-680، وابن أبي الحديد 453/4.

فليس هناك انتصار دائم، ولا انكسار دائم؛ لأن الدنيا مداولة بين الحق والباطل فقد ينتصر الحق في معركة، وقد ينتصر الباطل في معركة أخرى، وهذه هي سنة الله في الكون والحياة، فلا ينبغي للمؤمن أن ييأس أو يضعف أو يشعر بالحزن والإحباط واليأس عندما يهزم في أي موقع من مواقع الصراع مع الباطل، وإنما عليه أن يأخذ العبرة من الأحداث، ويدرس أسباب الهزيمة، ويتفحص مواطن القوة والضعف؛ ليتعلم من أخطائه، وليتفادى عوامل الانكسار والهزيمة، وليحذر وليواجه أحداث المستقبل بالرصد والوعي والالتزان.

2- إن الفشل في بعض مواقع الصراع قد يكون اختباراً وابتلاء من أجل تمحيص الناس وتمييزهم؛ لأن جوهر شخصية الإنسان يتضح عندما تخضع الشخصية للبلاء، وهذا الواقع أكدته أحداث أحد؛ فالهزيمة الطارئة زلزلت ضعاف النفوس وجعلتهم يعيشون حالات الشك والريب، بينما زادت هذه التجربة الصادقين إيماناً وصدقاً، وإصراراً وثباتاً في مواجهة التحدي، وبذلك انكشف الإيمان المزيف من الإيمان الخالص، والإيمان القوي الراسخ في العقول والنفوس من الإيمان المتزلزل.

وكذلك فإن المسلمين في أحد كانوا يتمنون الموت والشهادة في سبيل الله ولكن حين خضع بعضهم للتجربة، وفُرضت عليهم المعركة من جديد، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الشهادة سقطوا في الاختبار، وحاولوا الفرار من ساحة الجهاد، ولم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا القلة، برغم أنهم كانوا يرونه يتعرض لهجوم واسع من قبل المشركين حتى أصيب ببعض الجراحات وقد صور القرآن الكريم هذا الواقع بقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفُوهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: 141-143].

3- إن من أخطر المواقف التي واجهت المسلمين في أحد هو موقف البعض الذي بدأ يفتش عمن يأخذ له الأمان من العدو ليسلم بنفسه، أو بدأ يشكك بصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، وذلك بعدما انتشرت إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشعر المسلمون بالقلق والضياع. فقد قال البعض: ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان. وقال البعض: لو كان محمد نبياً لم يقتل، الحقوا بدينكم الأول.

وقد تحدث القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

فالمزولون في إيمانهم ينقلبون على أعقابهم، ويتراجعون عن دينهم وعن الحق بعد أن يسمعون بمقتل الرسول ويشعروا بغياب القائد، ولكن في مقابل هؤلاء نجد من الرجال المؤمنين من يمثلون حقيقة الإيمان والثبات على الحق حتى في حال غياب القائد أو موته.

فقد روي في أحد أن رجلاً من المهاجرين مرّ برجل من الأنصار يتشطح بدمه فقال له: أعلمت أن محمداً قد قتل؟ فأجابه الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم.

وفي رواية أخرى: أن أنس بن النضر مرّ برجال من المهاجرين والأنصار في معركة أحد وقد انكفأوا عن الجهاد فقال لهم: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل محمد.. فقال: إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه.

فغياب القائد لا يوقف المسيرة ولا يلغي الرسالة والقضية، ولذلك فلا يجوز أن ينحرف المسلمون عن خط الرسالة ولا أن يتخلوا عن قضيتهم ويتراجعوا إذا مات القائد أو أصيب، وإنما عليهم أن يجردوا أنفسهم لحمل مسؤولية الرسالة وإكمال المسيرة بعده بقوة وعزم وإرادة صلبة.

أسباب الهزيمة والدروس المستفادة:

إن الأسباب التي أدت إلى فشل المسلمين في أحد فصول معركة أحد وما يمكن أن نستفيدة من هذه التجربة كثيرة منها:

1- أهمية الانضباط والتقيّد بأوامر القائد وتوجيهاته مهما كانت الظروف؛ فإن الانضباطية - خصوصاً حين يكون القائد حكيماً - هي أساس النجاح والانتصار، وربما تكون مخالفة أفراد معدودين سبباً في دمار جيش بكامله، كما كان الحال في أحد، فإن من الواضح أن السبب الأول للهزيمة يعود إلى تهاون الرماة في تنفيذ الأوامر، واختلافهم وعصيانهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طمعاً في الدنيا وإيثاراً لها على الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُمُ يَمِينَهُ إِذَا فِشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152].

2- إن النصر لا يرتبط بكثرة العدد، ولذلك فلا ينبغي الاعتزاز بالكثرة بل يجب الاعتماد على النفس والتوكل على الله، والطاعة للقيادة، وتحمل المسؤولية والقيام بالتكاليف، فقد كان لاغترار المسلمين بأنفسهم وبكثرتهم أثر كبير في حلول الهزيمة بهم؛ فقد قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: قد كنت في بدر في ثلاثمائة رجل، فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، نتمنى هذا اليوم ندعو الله له، وقد ساقه الله إلى ساحتنا هذه، ورَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم لِمَا يَرَى مِنْ إِحَاجِهِمْ كَارَةً وَقَدْ لَبَسُوا السَّلَاحَ يَخْطِرُونَ بِسَيُوفِهِمْ يَتَسَامَوْنَ كَأَنَّهُمُ الْفُحُولُ (1). وواضح أن الاغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة الشعور بالاعتماد على النفس، ويجعلهم يعيشون روح التواكل واللامسؤولية.

3- إن سنن الحياة لا تبدل فالمسلمون عندما يأخذون بأسباب النصر ينتصرون وتشملهم عناية الله، وعندما يتهاونون فيها يصابون بالهزيمة، إنها سنة الله في الحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

4- إن عناية الله بالمؤمنين وتسديده لهم لا يعني إلغاء جميع الأسباب الطبيعية كلية، كما لا يعني أن هذه العناية وذلك الإمداد مطلق غير مشروط، بل هو مشروط قطعاً بالسعي من قبلهم نحو الهدف الأسمى، والعطاء والبذل

(1) انظر: الواقيدي/ المغازي: 211/1.

والتضحيات التي تؤهلهم لأن يكونوا موضعًا لعناية الله وألطافه، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُخَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

أو على الأقل لا بُدَّ لاستمرار هذه العناية الإلهية بهم من حفظ الحد الأدنى من الارتباط بالقيادة، وإطاعتها، وتنفيذ أوامرها.

5- الارتباط بالله سبحانه وابتغاء ما عنده والإعراض عن الدنيا ومتاعها وعدم الطمع في مكاسبها وغنائمها؛ فإن الله سبحانه ما زال يؤيد المسلمين بنصره في أحد حتى عصوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طمعًا في الدنيا، وإيثارًا لها على الآخرة، فكان لا بُدَّ في هذه الحالة من إعادة التمهيد لهم، وابتلائهم ليرجعوا إلى الله، وليميز الله المؤمن من المنافق، وليزداد الذين آمنوا إيمانًا.

6- أهمية تطهير الصفوف من المنافقين وضعاف الإيمان الذين يسقطون أمام مغريات الدنيا والإشاعات الكاذبة، ويفتقدون الوعي والإخلاص، والصبر في مواقع التحدي.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

سلوكه الشخصي-4

منطقه صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد اتفق جميع الذين وصفوا منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان أحسن الناس منطقاً، دائم الفكر، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختتمه بأشداقه (الأشداق جوانب الفم أي لا يفتح فاه كله) ويتكلم جوامع الكلم، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت ولا يذم منها شيئاً، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، إذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث أشار بها فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غص من طرفه، جل ضحكته التيسم، ويفتر عن مثل حب الغمام⁽¹⁾.

وإذا أردنا أن نبحث عن مكونات حلاوة منطقه صلى الله عليه وآله وسلم وحسنه حصلنا من ذلك على العناصر التالية:

- ترك الفاحش من القول فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سباً ولا فحاشاً بل كان أبعد ما يكون عن الفحش والبذاءة في الكلام.
- فصاحة لسانه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصيح اللسان إذا تكلم تكلم بأناة وهدوء.
- تبسمه أثناء التكلم، قال أبو الدرداء: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا حدث بمحدث تبسم في حديثه⁽²⁾.
- تكليمه للناس على قدر عقولهم فكانت أساليب عرضه للأفكار وإجاباته على الأسئلة تختلف في البعد والمستوى من شخص لآخر طبقاً للقابليات الذهنية التي يتمتع بها الأفراد، وإلى هذا أشار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «إنا معشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»⁽³⁾.

...

(1) المصابيح في السيرة 155/1، والترمذي في الشمائل المحمدية 34/1 رقم 8، والطبراني في الكبير 155/22 رقم 414، والبيهقي في شعب الإيمان 154/2 رقم 1430، وابن عساكر 343/3، ومكارم الأخلاق ص 13.

(2) أخلاق النبي 92.

(3) الفردوس بمأثور الخطاب 398/2 رقم 1611.

(12) الصراع المسلح مع قريش / 3

د- معركة الخندق

توالت غزوات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لبعض قبائل العرب واليهود بعد معركة بدر وأحد؛ مما أثار مخاوف اليهود وإحساسهم بالخطر من تعاظم قوة المسلمين فاندفعوا للتآمر على الإسلام ونبهه العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، وراحوا يحرضون أعداء الإسلام ويخططون لتكوين تجمع عسكري هائل لمهاجمة المدينة والقضاء على الإسلام. لقد اتصل اليهود بقريش وغطفان واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة إلا أن أنباء هذه المؤامرة تسربت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشاور أصحابه واستقر الرأي على حفر خندق حول المدينة لتحصينها، فاستنفر المسلمون لحفر الخندق وشارك هو صلى الله عليه وآله وسلم بعملية الحفر.

تأهبت أحزاب الكفر والضلال من قريش وغطفان وبعض القبائل المعادية وجمعوا رجالهم وأنصارهم ومن تابعهم فكان تعداد جيشهم عشرة آلاف مقاتل نزلوا قرب المدينة، بينما كان عدد المسلمين تسعمائة مقاتل⁽¹⁾ تعبأوا خلف الخندق بقوة وشجاعة.

وبعد أن عرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق عيونهم أن اليهود نقضوا ما بينه وبينهم من العهد، وأنهم طلبوا من قريش ألف رجل، ومن غطفان ألف رجل؛ ليغيروا على المدينة عبر حصن اليهود- بعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويجهرون بالتكبير؛ تخوفاً على الذراري من بني قريظة!⁽²⁾، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خوات بن جبير بن النعمان الأنصاري؛ لينظر غرة بني قريظة، فكمّن لهم، فحمله رجلٌ منهم -وقد أخذه النوم- فأمكنه الله من الرجل وقتله! ولحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره، وخرج نَبَّاشٌ بن قيس في عشرة من اليهود يريد المدينة؛ ففطن بهم نفر من أصحاب سلمة بن أسلم فرموهم حتى هزموهم، ومَرَّ سلمة فيمن معه فأطاف بحصون اليهود فخافوه وظنوا أنه البَيَّاتُ⁽³⁾.

(1) وهذا العدد هو الذي ذكره ابن حزم الظاهري في كتابه جوامع السيرة ص 178 وقال فيه: وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين، وقد قيل: في تسعمائة فقط، وهو الصحيح الذي لا شك فيه، والأول وهم. اهـ. ولعل القائل بذلك ذهب إلى ما ورد في حديث جابر (البخاري 1505/4 رقم 3876)؛ حيث قال: في سياق الحديث الذي فيه القصة التي استضاف فيها جابر صلى الله عليه وآله وسلم على عناق وصاع من شعير ... وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأهل الخندق إلى أن قال ... وهم ألف. والمشهور في كتب السير أن عدد المسلمين في غزوة الخندق ثلاثة آلاف. ينظر الواقدي 440/2، وابن سعد 65/2، وابن هشام 224/3، وسبل الهدى 512/4، وسيرة ابن كثير 202/3-205، والروض الأنف 279/3، والسيرة الحلبية 309/2.

(2) السيرة الحلبية 315/2.

(3) الإمتاع 233/1، ومغازي الواقدي 493/2.

إرجاف المنافقين:

دَبَّتْ عقاربُ النفاق تبث سمومها، وعَظُمَ البلاء، واشتد الخوف، وكانت شائعةُ المنافقين تقول: كان محمد يَعِدُنَا بكنوز كسرى وقيصر، وأَحَدُنَا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط⁽¹⁾.

بنو حارثة الذين قالوا: إن بيوتنا عورة: فقد بعثوا أوس بن قيطي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن بيوتنا عورة (أي مكشوفة للعدو) وليس في دور الأنصار مثل دارنا؛ ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا؛ فَأَذَنَ لَنَا فَلْتَرْجِعْ إِلَى دُورِنَا فَنَمْنَعُ ذُرَارِينَا ونساءنا؛ فَأَذَنَ لَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال: يا رسول الله! لا تأذن لهم؛ إنا والله ما أَصَابْنَا وإياهم شِدَّةٌ قط إلا صنعوا هكذا! فَرَدَّهُمْ⁽²⁾.

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقام المشركون قريبًا من شهر لم تكن بينهم حرب إلا الرِّمِيَّ وهي المُرَامَةُ بالنبل، والحصار؛ وقد تحدث القرآن عن هذا فقال: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 10-14].

المبارزة:

في أثناء الحصار جَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدِّ العامري، وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ، وَنَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بَخِيُولَهُمْ فوجدوا مكانًا ضيقًا بالخندق أغفله المسلمون؛ فَعَبَّرُوا إِلَى سَاحَةِ الْمُسْلِمِينَ، فطلب عمرو المبارزة ثلاث مرات فلم يجبه من المسلمين أحد سوى علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يقول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم -في كل مرة-: أنا أبارزه يا رسول الله! وأردف عمرو قائلاً: أترعمون أن قتلاكُم في الجنة وقتلانا في النار؛ فما لكم لا تخرجون إلي؟! فَأَذَنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعلي عليه السلام، وَعَمَّمَهُ بعمامته، وَقَلَّدَهُ سيفه، وقال: اللهم إن هذا أخي وابن عمي؛ فلا تَذَرْنِي فَرْدًا وأنت خير الوارثين.

فقال عمرو: مَنْ أَنْتَ؟ فَانْتَسَبَ لَهُ؛ فقال: يا ابن أخي، كان أبوك نديمي وصديقي؛ فارجع فلا أحب أن أقتلك! فقال علي: لكنني أحب أن أقتلك! فقال عمرو: إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع؛ فقال علي: إن قريشًا تُحَدِّثُ عَنْكَ أَنَّكَ لَا تُدْعَى إِلَى ثَلَاثٍ إِلَّا أَجِبْتَ وَلَوْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهَا، قَالَ: أَجَلْ، فقال: أدعوك إلى الإسلام، قال: دَعُ عَنْكَ هَذِهِ، قَالَ: أدعوك إلى أن ترجع بمن معك، قال: إذن تتحدث نساء قريش أن غلامًا خدعني! قال: فإني أدعوك إلى البراز؛ فحمي عَمْرُو وقال: ما كنت أظن أن أحدًا من العرب يرومها، فَتَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَّرَهُ، فَتَجَاوَلَا

(1) يقال: إن القائل هو مُعْتَبِ بن قشير. ينظر: الواقدي 494/2، والروض الأنف 422/3.

(2) الإمتاع 233/1.

وحجبهما الغبار عن الناس إلى أن سمعوا تكبير عليّ كرم الله وجهه، وأنجلت الغبرة وعليّ راكب صدره يحتر رأسه! ففر أصحابه إلا نوفلا فوق في الخندق مع فرسه، فرمى بالحجارة، فجعل يقول: قتلته أحسن من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه عليّ كرم الله وجهه فقطعه بالسيف نصفين! وكبر ذلك على المشركين؛ فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنا نعطيك الدية على أن تدفعه إلينا فندفنه، فقال: «لَا خَيْرَ فِي جُثَّتِهِ، وَلَا فِي ثَنِّهِ؛ ادْفَعُوهُ إِلَيْهِمْ».

وشاء الله سبحانه وتعالى أن ينصر دينه ويوفر لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم عوامل النصر فيهمز أحزاب الكفر والضلال من دون قتال عنيف بين الطرفين⁽¹⁾.

وقد أسهمت ثلاثة عناصر أساسية في تحقيق النصر في هذه المعركة هي:

1- التخطيط العسكري الذي تمثل بحفر الخندق وغير ذلك، حيث أسهم حفر الخندق في حماية المسلمين والمدينة وفي حرمان العدو من سرعة الحركة، وفي تطويل أمد المعركة وجعلها على شكل محاور لكي تتفاقم أزمات الأحزاب نتيجة لطول زمن الحرب.

2- العمل الاستخباري الفعال الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أدى إلى إيقاع الخلاف بين قوى الأحزاب.

3- الدور البطولي الذي قام به علي بن أبي طالب عليه السلام؛ حيث مكّنه الله من قتل عمرو بن عبد ود وهو من أبرز صناديد قريش ورجالاً فاضلاً وقوة قريش ويمسوا وشعروا بالضعف والهزيمة.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم موقف علي عليه السلام يوم الخندق بقوله:

«لَمُبَارَزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»⁽²⁾.

4- التأييد الإلهي الذي تمثل بجنود الله الغيبين الذين نزلوا ساحة المعركة، والذي تمثل أيضاً بالرياح والعواصف الهوجاء التي أصابت معسكر الأعداء فزلزلت استقرارهم، وفرضت عليهم الفرار أذلاء من دون تحقيق شيء، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

فرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات:

(1) ابن هشام 224/3، والبداية والنهاية 122/4، والسبل 534/4، والسيرة الحلبية 320/2، والواقدي 471/2. والاكثفاء 125/1، ودلائل البيهقي 438/3، والمستدرک 32/3 وأقره الذهبي، والكمال لابن الأثير 279/2-280، والطبري 574/2، وسيرة ابن كثير 202/3-205، والروض الأنف 279/3-280.

(2) انظر: الحاكم. المستدرک على الصحيحين: ج 3 ص 32.

1- ضعاف الإيمان: وهم الذين وقعوا تحت تأثير الوسوس الشيطانية والظنون السيئة فعاشوا الخوف والقلق عندما رأوا الأعداء قد تحالفوا ضدهم، فاهتز إيمانهم وفقدوا عمق الثقة بالله وبنصره.

وقد صور القرآن الكريم موقف هذه الفئة بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10، 11].

2- المنافقون: وقد اتخذوا عدة مواقف ذكرها القرآن الكريم هي:

أ- قالوا ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا؛ لأن الله ورسوله كانا قد وعدهم النصر والفتح وهامهم أمام حشود القوى المتحالفة لا يقومون على شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

ب- تثبيط العزائم وشل الإرادات عن الجهاد، قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: 13] أي لا تقدرّون على فعل شيء أمام قدرات الأعداء فارجعوا من حيث أتيتم.

ج- خلق الأعذار الواهية؛ من أجل الفرار من ساحة الجهاد. قال تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13].

3- المؤمنون الحقيقيون: وهم الذين لما رأوا الأحزاب لم ينحرفوا قيد أنملة عن عقيدتهم وإيمانهم ولم يضعفوا ولم يشككوا ولم يتزلزلوا، وإنما عبّروا عن ثقتهم بوعد الله ورسوله وعن صدقهم وإخلاصهم وعمق إيمانهم وثباتهم في مواقع التحدي قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

هـ - صلح الحديبية

عززت الأحداث والمعارك التي وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعداء الإسلام من المشركين واليهود موقف المسلمين، وغرست هيبته في النفوس فقرر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يسير بأصحابه إلى مكة ليزور البيت الحرام ويعتمر بعد أن رأى في المنام أنه يدخله هو وأصحابه آمنين من غير قتال كما يشير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

توجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعه ما يقرب من ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار نحو مكة في ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة، وهم يحملون السلاح، وقد ساقوا معهم سبعين بدنة هديًا لتنحر في مكة. تناهى الخبر إلى قريش ففزعت وظنت أن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم يريد الهجوم عليها، فراحت تتدارس الموقف وتجهز نفسها لصد المسلمين، وأرسلت سرية بقيادة خالد بن الوليد كمقدمة لجيشها، فبلغ الرسول صلى الله

عليه وآله وسلم خبر قريش واستعدادها لقتاله، ولكي يتجنب المواجهة - حيث لم يكن هدفه الحرب - غيّر مسيره وسلك طريقاً غير الطريق الذي سلكته قريش حتى استقر في وادي الحديبية⁽¹⁾، فشكا أصحابه جفاف الوادي وانعدام الماء فيها، فأجرى الله سبحانه معجزة خالدة على يده المباركة، تجلت عندما توضأ صلى الله عليه وآله وسلم وألقى ماء المضمضة في البئر التي كان قد نضب ماؤها فانفجر الماء وارتوى الجمع.

بعدما حط جيش المسلمين في الحديبية بدأت رحلة التفاوض بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقريش فبعثت قريش عدة مندوبين على التوالي للتفاوض مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واستيضاح أهدافه، فأبلغهم صلى الله عليه وآله وسلم بجواب واحد: «**إنا لم نجئ لقتال ولكننا معتمرين**» ولكن قريشا لم تقتنع بذلك واتهمت بعض مبعوثيها بالجن والكذب فقرر صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعث من جهته سفيراً إلى قريش ليوضح لها الهدف الذي جاء المسلمون من أجله فاختار خراش بن أمية من خزاعة لأداء المهمة إلا أن خراشا ما إن بلغ مكة حتى عقروا بعيره وأرادوا الفتك به لولا أن منعتة الأحابيش، فرجع إلى معسكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بما جرى معه.

لم ييأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رغم التصلب الذي أبدته قيادة قريش ضد محاولاته صلى الله عليه وآله وسلم السلمية، وكأنه كان يرى بنظره الثاقب النتائج الطيبة التي ستجنيها الدعوة الإسلامية إذا ما سادت العلاقات السلمية فترة من الوقت مع قريش، فأرسل عثمان بن عفان إلى مكة فاعتقلته قريش ثلاثة أيام حتى ظن المسلمون أنه قتل.

لم يجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بُدّاً من التهيؤ للقتال.. بعد فشل كل محاولاته الودية لدخول مكة.. وبعد الموقف السيء الذي وقفته قريش من سفرائه إليها، فدعا الناس إلى البيعة على الصمود بوجه قريش، فانهال عليه المسلمون يبائعونه وهو واقف تحت شجرة سميت فيما بعد شجرة الرضوان نسبة إلى البيعة التي تمت تحتها⁽²⁾.

تخوفت قريش من استعداد المسلمين للقتال ومبايعتهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الصمود بعدما بلغتهم أنباء بيعة الرضوان فقررت استئناف المفاوضات، وأرسلت سهيل بن عمرو سفيراً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكلفته أن يسعى لمصالحة محمد صلى الله عليه وآله وسلم شرط أن يرجع عنهم هذا العام، فالتقى سهيل بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجرت مفاوضات طويلة انتهت أخيراً بالاتفاق على إبرام معاهدة هدنة بين الطرفين، وتمت الموافقة على جميع بنودها، ودعا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علياً عليه السلام فكتب الوثيقة وكان من أبرز بنودها:

1- اتفق الطرفان على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

2- من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

(1) وادي الحديبية: مكان يبعد عن مكة حوالي عشرين كيلو متراً.

(2) ينظر السيرة الحلبية 717/3، وعيون الأثر 125/2.

- 3- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده (أي يتحالف معه) كان له ذلك، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم كان له ذلك أيضا من غير حرج عليه من أحد الطرفين.
 - 4- أن يرجع صلى الله عليه وآله وسلم بمن معه هذا العام على أن يأتي في العام القادم فيدخل مكة ويقيم فيها ثلاثة أيام ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب.
 - 5- أن يكون الإسلام ظاهراً بمكة، لا يكره أحد على دينه، ولا يؤذى ولا يُعَيَّر.
 - 6- لا إسلال (سرقة) ولا إغلال (خيانة)، بل يحترم الطرفان أموال الطرف الآخر، فلا يخونه ولا يعتدي عليه بسرقة.
 - 7- أن لا تعين قريش على محمد وأصحابه بنفس ولا سلاح.
- وبموجب هذه المعاهدة (البند3) تحالفت خزاعة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتحالفت كنانة مع قريش.

نتائج الحديبية:

يعبر عن المعاهدة التي أبرمت في الحديبية بـ(الهدنة) حسب مصطلح الفقه الإسلامي، والهدنة هي: المعاهدة على ترك الحرب وتجميد حالة الصراع مع العدو مدة معينة، وهي جائزة إذا تضمنت مصلحة للمسلمين.

والمصلحة إنما يشخصها ولي أمر المسلمين - الذي بيده أمر الحرب والسلام- تبعاً للظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية والأمنية وغيرها، فهو وحده الذي يحدد بحسب طبيعة المرحلة في كل عسر ما إذا كانت مصلحة المسلمين كامنة في الجهاد أو في الهدنة.

وعلى هذا الأساس فلا يصح تعميم أحكام مرحلة تاريخية لها ظروفها وأوضاعها الخاصة على مرحلة حالية من الصراع، فمن الخطأ الاستدلال مثلاً بهدنة الحديبية أو بصلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية على جواز الصلح مع الكيان الصهيوني لاختلاف طبيعة الأوضاع والظروف والعدو والصراع وتبعاً لذلك اختلاف مصلحة المسلمين التي قد تقتضي هدنة في زمن وحرباً في زمن آخر.

ويبدو من نظرة معمقة لأوضاع الإسلام والمسلمين قبل معاهدة الحديبية وبعدها وما تمخض عنها من نتائج.. أن هذه المعاهدة جاءت في مصلحة الإسلام والمسلمين بالكامل بل كانت فتحاً كبيراً ونصراً عظيماً، لم يدرك أهميتها معظم المسلمين الذين احتجوا على بعض بنودها واعتبروها محققة بحقوقهم ومكانتهم.

بل لقد كانت هذه المعاهدة من الأحداث السياسية المهمة في تاريخ الإسلام التي مهدت لنتائج عقائدية وعسكرية وسياسية كبرى في مصلحة الإسلام والمسلمين وجعلت انتصار الإسلام أمراً محسوماً وحتمياً، وهذه بعض نتائجها:

- 1- أن الهجمات والمؤامرات المتوالية التي قامت بها قريش على امتداد السنوات الست الماضية ضد الإسلام ودولته الفتية لم تترك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فرصة لنشر الإسلام على نطاق واسع في شبه الجزيرة وخارجها؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصرف معظم أوقاته في الدفاع عن الإسلام ولكن بعد صلح الحديبية وتجميد الصراع مع قريش عاشت المنطقة فترة من الهدوء والاستقرار أتاحت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم القيام بنشاط تبليغي واسع في المناطق كافة، فقد نشط صلى الله عليه وآله وسلم منذ أواخر السنة السادسة، وحتى فتح

مكة في توجيه سفرائه إلى كبار أمراء العرب المشركين وزعمائهم يدعوهم إلى الإسلام في نفس الفترة التي كان قد وجه فيها سفراءه ومبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة التي بُعث بها إلى الناس جميعًا.

2- أزال صلح الحديبية الموانع المادية والنفسية التي كانت قد وضعتها قريش بين الناس وبين الإسلام، وسمح لمختلف القبائل المشركة المنتشرة في الجزيرة الاتصال بالمسلمين والتعرف عن قرب على مبادئ الإسلام ومفاهيمه وأحكامه، بعد أن منح الصلح تلك القبائل الحرية المطلقة في أن تختار المعسكر الذي تراه مناسبًا لتدخل في دينه أو في تحالف معه، كما فتح الصلح المجال أمام المسلمين لينطلقوا بحرية في الدعوة إلى الإسلام داخل مكة وخارجها، فدخل الكثير من الناس في الإسلام، بل لقد دخل فيه خلال سنتين أكثر مما دخل فيه على امتداد السنوات الماضية؛ بدليل أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة بينما خرج في فتح مكة بعد سنتين على رأس عشرة آلاف مقاتل.

3- فسح الاتفاق المجال أمام خزاعة للانضمام إلى معسكر المسلمين وكان انضمامها إلى معسكر الإسلام نصرا كبيرا للرسول وللإسلام والمسلمين ذلك أن جزءا كبيرا من الأحابيش الذين كانت قريش تعتمد عليهم في حروبها يعدون من بطونهم، وبذلك ضم ص جزءا كبيرا من هذه القوة إلى جانبه وأضعف بذلك مركز قريش الحربي، ومهد بهذا وذاك لفتح مكة والقضاء على قاعدة الوثنية في المنطقة.

4- أتاح صلح الحديبية فرصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليخوض بحدوء صراعا ضد القوى الأخرى المضادة للإسلام كاليهود الذين تم القضاء عليهم في خيبر والمواقع المجاورة له، والبيزنطيين وحلفائهم العرب الذين ازداد تكالبهم في الجهات الشمالية بازدياد نشاط الإسلام هناك فضلا عن التجمعات القبلية البدوية المشركة المنتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة لإنزال الضربات بالمسلمين.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

سلوكه الاجتماعي-1

نماذج من آداب معاشرته للناس:

امتاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخلق إنساني رفيع وسلوك اجتماعي مميز مع الناس على اختلاف شرائحهم وانتمائهم مما جعله يمتلك عقول وقلوب الناس ويكسب محبتهم ويجذبهم إلى طريق الله.

ونستعرض هنا نماذج من خلقه الاجتماعي وآداب معاشرته للناس حسبما ورد في الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام الذين هم أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلوكه الفردي والاجتماعي.

- كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلق الوجه، دائم البشر، يواجه الناس بالابتسامة، ويحسن لقاءهم، ويعاملهم بالرفق واللين والرحمة، ولم يكن يبدو على وجهه العبوس أو الحزن أو الانقباض، بل كان بشوشاً ويخفي أحزانه وآلامه.

وكان يخاطب قومه ويقول: «يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»⁽¹⁾.

- وكان صلى الله عليه وآله وسلم شديد المداراة للناس وأرف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس، حتى لقد روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أمرني ربي بمداواة الناس كما أمرني بالفرائض» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أعقل الناس أشدهم مداراة للناس، وأذل الناس من أهان الناس».

- وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبعد الناس عن التعالي على مجتمعه أو تمييز نفسه عن أفرادها؛ فقد كان يعيش مع الناس كواحد منهم لا يختلف عنهم في شيء.

- وكان يتفقد أحوال الناس ويسأل الناس عما في الناس ليطلع على أوضاعهم، بل لقد روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده.

- ومن مصاديق رفقته بالأمة ومعاملتها بالحسنى ما رواه يونس الشيباني قال: قال أبو عبد الله -الصادق - عليه السلام كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليل، قال عليه السلام: فلا تفعلوا فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يداعب الرجل يريد أن يسره.

(1) شرح نهج البلاغة 6/ 338، وابن أبي شيبه 212/5 رقم 25333، وأبو يعلى 428/11 رقم 6550، بلفظ: «لن تسعوا

الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق»، وليس فيه: «يا بني عبد المطلب».

وعن علي عليه السلام : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَيْسَرَّ الرجل من أصحابه إذا رآه مغمومًا بالمداعبة ».

- وكان صلى الله عليه وآله وسلم يفشي السلام بين الناس فيسلم حتى على الصغير منهم.
 - وكان صلى الله عليه وآله وسلم يدعو أصحابه بكناهم إكرامًا لهم واستمالة لقلوبهم، ويكني من لم يكن له كنية فكان يدعى بما كناه، ويكني أيضا النساء اللاتي هن أولاد واللاتي لم يلدن، ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم.
 - وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته.
- وعن علي عليه السلام : « ما فاضه أحد قط في حاجة أو حديث فانصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف، وما نازعه الحديث أحد حتى يكون هو الذي يسكت ».
- وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته.
 - وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يذم أحدًا ولا يعيّر أحدًا ولا يكلم أحدًا بشيء يكرهه، بل كان شديد الحياء حتى لقد ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أراد لوم أحد أو عتابه يعاتبه بكل حياء وخجل.
 - وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يدع أحدًا من أصحابه يمشي معه إذا كان راكبًا حتى يحمله معه فإن أبي قال: تقدم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد.

(13) الصراع المسلح مع قريش / 4

و- فتح مكة

بعد مرور حوالي السنتين على صلح الحديبية أقدمت قريش على نقضه وذلك عندما انضمت إلى حلفائها من قبيلة كنانة التي أقدمت على مهاجمة خزاعة حليفة المسلمين مخالفة بذلك الهدنة القائمة بين الطرفين بموجب الصلح، فبيتوا خزاعة ليلاً، وهم غارون آمنون، فقتلوا منهم عشرين رجلاً، ثم ندمت قريش على ما صنعت، وعلموا أن هذا نقض للمدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في المسجد بين ظهراي الناس يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه، فقال شاعرهم:

يا رب إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلا
إن قريشاً أخلفتك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وبيتونا بالخطيم هجدا وقتلونا ركعاً وسجدا

.. إلى آخر الأبيات

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لَا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصِرْكُمْ»**.

وشعرت قريش بخطورة المجازفة التي أقدمت عليها فأوفدت أبا سفيان إلى المدينة ليؤكد العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليتفادى نتائج الأحداث، إلا أن محاولته في المدينة لم تجد نفعاً بعدما رفض النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقابلاته لنقضه العهد.

قرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم التوجه إلى مكة لمواجهة قريش فاستنفر أصحابه وجهاز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من القبائل.

وقرر أن يتحرك سراً لئلا يباغت قريشاً وليصادر إمكانية الدفاع من يدها؛ ولئلا يقع قتال في مكة فدعا ربه قائلاً صلى الله عليه وآله وسلم: **«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»**.

اكتشف حاطب بن أبي بلتعة - وكان من المسلمين - أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد مكة فكتب إلى قريش بذلك وأعطى الكتاب إلى امرأة فوضعه في شعرها وتوجهت إلى مكة، فعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا العمل الجاسوسي الخطير وبعث علياً عليه السلام، والزبير بن العوام ليقبضا عليها، فأدركاها في منطقة ذي الحليفة وانتزع منها علي عليه السلام الكتاب بالتهديد والقوة بعد محاولتها إخفاءه، وأرجعها إلى المدينة.

ويقول المؤرخون: إن الله أنزل بهذه المناسبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: 1].

تحرك جيش المسلمين في العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة سرًا حتى وصل إلى مشارف مكة وطوقها.

استخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحرب النفسية في هذه الغزوة فأشعل النيران على الجبال على مقربة من مكة ليشعر قريشًا بقوة وكثرة الجيش ويثير الرعب في قلوب الطغاة ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال. خرج أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء؛ ليتجسسوا الأخبار ففوجئوا بالنيران تطوق مكة، وفي هذه الأثناء التقى العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان في الطريق خارج مكة، فأشار عليه أن يذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد أن أخذ له الأمان رتب له لقاء مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحصل اللقاء صبيحة اليوم التالي؛ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أي رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا.

تدخل العباس لإنقاذ أبي سفيان فخطبه قائلاً له: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فشهد بذلك، وفي نفسه من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أشياء وأشياء وظلت تلك الأشياء إلى أن مات. وقد حاول العباس أن يتعامل مع التركيب النفسي لشخصية أبي سفيان ويوجه موقعه الاجتماعي لصالح الفتح المبين فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله إنه يحب الفخر، فاجعل له شيئًا يكون في قومه، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم من ينادي في الناس: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن».

بعد أن أعطى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذه الميزة إرضاء لخصلة الفخر في نفسه أخذه العباس إلى المكان الذي عينه له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليرى جنود الله وهي تمر أمامه في استعراض عسكري لإظهار القوة مما لم تعهد له مكة نظيرًا من قبل.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة بتلك الحشود التي تنساب خلفه فاتحًا من غير قتال، فلما انتهى إلى الكعبة تقدم على راحلته فاستلم الركن وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره، ثم طاف بالبيت وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا وكان هبل أعظمها؛ فقال لأمر المؤمنين عليه السلام أعطني يا علي كفا من الحصى فقبض له أمير المؤمنين عليه السلام كفا فناوله فرماها به، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81] فما بقي منها صنم إلا خر لوجهه.

ثم أمر بها فأخرجت من المسجد فطرحته وكسرت، ثم أمر أن تفتح الكعبة ففتحت له، ودخلها فصلى فيها وأزال كل ما كان فيها من تماثيل وصور، ثم أشرف من بابها على الناس وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد لله

الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرة أو دمٍ أو رباً في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحج» ثم توجه إلى المكين وسأهم: ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أقول لكم ما قال أخي يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وبذلك ضرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للأجيال في كل عصر وزمان مثلاً في الرحمة والعفو والترفع عن الحقد والانتقام⁽¹⁾.

ولعل أهم السمات التي برزت في غزوة الفتح هي التالية:

- 1- الإعداد الجيد للمعركة؛ فقد بلغ عدد جيش الفتح عشرة آلاف مقاتل، مجهزين أحسن تجهيز.
 - 2- المحافظة على السرية التامة: فقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بالإعداد للحرب ولكنه لم يعلن عن وجهته حتى للمقربين إليه، وعندما اضطر قبيل التحرك للإعلان عن وجهته لبعض أصحابه أمرهم بأن يكتموا الأمر؛ كي يستطيع تحقيق المفاجأة للعدو، كما اتخذ عدة إجراءات في المدينة تمنع من تسرب المعلومات إلى العدو، وقد تمكن جيش المسلمين نتيجة التشدد في المحافظة على السرية التامة من مباغته المشركين والظهور فجأة على مقربة من مكة بقوات كبيرة لا قبل لقريش وحلفائها بمواجهتها.
 - 3- استخدام الحرب النفسية: فقد تعمد صلى الله عليه وآله وسلم نشر المسلمين على بقعة كبيرة من الأرض على مشارف مكة فأشعلوا نيرانهم ليلاً ليرى العدو كثرتهم.
 - 4- حكمة التصرف بعد النصر والتواضع: فلم يبدر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد دخوله مكة أي تصرف يمكن أن يثير المنهزمين فهو فاتح حكيم، وهو يعود إلى بلده وأهله، لا يحمل غلا ولا حقداً، ولا يجد في انتصاره وسيلة للتكبر أو التجبر، ويعبر عن سروره بالفتح بتواضع جم.
- واستطاع في موقف إنساني نبيل أن يستميل أهل مكة، وهم الذين وقفوا ينتظرون حسابهم فإذا به صلى الله عليه وآله وسلم يعفو عنهم ويقول لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

(1) ابن هشام 31/4، والطبقات 143/2، وعيون الأثر 223/2، والواقدي 781/2، وابن كثير 526/3، وشرح المواهب اللدنية 288/2، والسيرة النبوية للشرفي ص 199، ومغلطاي ص 306 .

سلوكه الاجتماعي-2

صفة مجلسه صلى الله عليه وآله وسلم:

عن الإمام الحسين عليه السلام قال: سألت أبي عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله جل اسمه - إلى قوله: يعطي كلاً من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سألَه حاجة لم يرده إلا بها أو ميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه، فكان لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء. مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات ولا يوهن فيه الجرم، ولا تُنثى فلتاته⁽¹⁾ متعادلون متفاضلون فيه بالتقوى متواضعون يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.⁽²⁾

وأما سيرته مع جلسائه فيقول الحسين عليه السلام نقلاً عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب (من الصخب وهو شدة الصوت) ولا فحاش، ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي فلا يؤيس منه، ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، ومما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته (عيوبه)، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، وبصير للغريب على الجفوة في منطقته ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم. ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرشدوه إلي، ولا قبل الشاء إلا عن مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام⁽³⁾.

(1) فَلَتَاتُ الْمَجْلِسِ: هَفَوَاتُهُ وَزَلَّاتُهُ. والمعنى: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ فَلَتَاتٌ فَتُنْتَى أَي تُذَكَّرُ أَوْ تُحْفَظُ وَتُحْكَى. تاج العروس: 3 / 103..

(2) المصاييح في السيرة ص 158.

(3) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية 34/1 رقم 8، والطبراني في الكبير 155/22 رقم 414، والبيهقي في شعب الإيمان 154/2 رقم 1430، وابن عساكر 343/3 عن الحسن بن علي قال: سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي وكان وصافاً عن حلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... وينظر أخلاق النبي للأصبهاني ص 17. والمصاييح في السيرة ص 159.

وفي سمو أخلاقه مع جلسائه أيضا ما يروى أنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم لحظاته (نظراته) بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسوية، ولم ييسط (يمد) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجله بين أصحابه، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده⁽¹⁾.

...

(1) سنن البيهقي 192/10، وابن ماجه 1224/2 رقم 3716، ومكارم الأخلاق ص 14.

(14) الصراع مع القبائل المشركة الأخرى

غزوة حنين

وُلد فتح مكة والانتصار العظيم الذي حققه المسلمون على قريش وقاعدتهم الوثنية ردّ فعل عنيف لدى القبائل العربية المشركة في الشمال وعلى رأسها هوازن وثقيف، ورأت أن تتحرك لتوجيه ضربة للمسلمين قبل أن يستفحل الخطر وتجد هذه القبائل نفسها محاطة بالمسلمين من كل مكان.

وكانت هذه القبائل ولدى سماعها بمغادرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة - قبل فتح مكة على رأس عشرة آلاف مقاتل - قد تجمعت خوفاً من أن يغزوها المسلمون، وقال زعماءها بعد فتح مكة: قد فرغ لنا محمد، فلا ناهية له دوننا، والرأي أن نغزوه.

فنظموا جيشاً كبيراً من هوازن وثقيف - ولحق بهما فيما بعد قبائل نصر بن معاوية، وجشم، وسعد بن بكر - بقيادة مالك بن عوف زعيم هوازن، فرأى هذا أن يسير مع المقاتلين نساءهم وأطفالهم وأموالهم كي يستमितوا في القتال.

عندما سمع صلى الله عليه وآله وسلم نبأ هذا التحرك الوثني بعث أحد أصحابه عبد الله بن أبي حذرة الأسلمي مستخبراً، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فتسلل الرجل إلى مواقع العدو وجمع المعلومات اللازمة وعاد ليخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما أجمع عليه هؤلاء من قتال المسلمين.

فانطلق صلى الله عليه وآله وسلم من مكة في مطلع شوال على رأس اثني عشر ألف مقاتل كان من ضمنهم ألفان من المكيين الذين أسلموا بعد الفتح، وسرعان ما وجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى اجتياز واد من أودية تهامة، شديد الانحدار يُدعى حينئذٍ في طريقهم لمواجهة التجمع الوثني، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي واتخذوا مواقع لهم في شعابه وعند مضيقه، وتهيئوا للانقضاض على المسلمين في جو يسوده المطر والضباب.

وما إن دخل المسلمون الوادي حتى فاجأهم أعداؤهم بهجوم مباغت، فأصابهم الفزع والاضطراب وفروا راجعين لا يلبثون على شيء، ولم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من بني هاشم فأخذ صلى الله عليه وآله وسلم ينادي: **«يا أيها الناس هلموا إليّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»**.

ثم أمر عمه العباس - وكان جهوري الصوت - أن يلحق بالفارين ويناديهم ويذكرهم بالعهد الذي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأخذ العباس يناديهم: يا معشر المهاجرين والأنصار يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله..

فسمع المسلمون صوت العباس وأنزل الله السكينة على قلوب المؤمنين منهم فبادروا للعودة إلى ساحة المعركة واستقبلوا العدو بصدورهم وقاتلوا ببسالة على قلتهم بعدما رأوا رسول الله يباشر القتال بنفسه بشجاعته ومن حوله علي عليه السلام ومن معه من بني هاشم يقاتلون إلى جانبه.

وعندما رأى صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه يجاهون الشرك وقد احتدم القتال بينهم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الآن حي الوطيس».

وتمكن علي عليه السلام من قتل حامل راية هوازن وبدأت الكفة تميل لصالح المسلمين، وما لبث المشركون أن أخذوا بالتراجع، وانقض عليهم المؤمنون يعملون فيهم قتلاً وأسراً فأصيبوا بهزيمة نكراء وفروا لا يلبثون على شيء تاركين وراءهم النساء والأولاد والأموال، وما إن عاد إلى الميدان أولئك الذين تراجعوا إلى الخلف من المسلمين حتى وجدوا أسارى المشركين مكتفين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم⁽¹⁾.

معركة أوطاس

تراجع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف، وعسكر بعضهم في أوطاس وتوجهت فئة أخرى نحو نخلة فقرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ملاحقتهم ولم يتح لهم فرصة يستردون فيها قواهم ويعيدون تنظيم صفوفهم، فأرسل صلى الله عليه وآله وسلم على الفور قوة من فرسان المسلمين لمطاردة أولئك الذين توجهوا نحو نخلة، وقوة ثانية كلفت بقتال المشركين في أوطاس، وهناك أوقع المسلمون بهم شر هزيمة.

وقد حصل المسلمون نتيجة معركة حنين وأوطاس على غنائم كثيرة بلغت على حد بعض الروايات ستة آلاف من السبي، وأربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحبس السبايا والأموال الكثيرة في مكان يدعى (الجعرانة) مجمداً التصرف بها إلى أن يعود من مطاردة العدو الذي لجأ إلى الطائف.

حصار الطائف

تمكن مالك بن عوف من الفرار مع جيش هوازن وثقيف إلى الطائف، فانطلق صلى الله عليه وآله وسلم بجيش المسلمين صوب الطائف حيث اعتصم المنهزمون بحصونها المنيعة، وأعدوا العدة للقتال، ونزل صلى الله عليه وآله وسلم قريبا من الحصون حيث عسكر هناك، وجرت مناوشات بين الطرفين استشهد خلالها جماعة من المسلمين بنبال العدو، الأمر الذي دفع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى إبعاد معسكره عن مدى النبال التي كانت تنطلق من حصون ثقيف، وظل يحاصرهم بضعا وعشرين يوماً، حيث استمر القتال خلالها عنيفا حينا، ومتقطعا أحيانا،

(1) ابن هشام 80/4، والطبقات 149/2، والواقدي 885/3، ومغلطاي 317، وسيرة ابن كثير 610/3، وعيون الأثر 253/2، ومحمد رسول الله ص 325، والإمتاع 14/2.

وقد استعمل فيه المسلمون آلات الحصار لأول مرة كالمنجنيق والدبابة⁽¹⁾، وقد تمكنت قوة من المسلمين من الزحف بدباباتهم إلى جدار الطائف وبدأوا بخرقه لولا أن أرسلت عليهم ثقيف قطعاً من حديد محمية بالنار اضطرهم إلى الانسحاب.

وردًا على المقاومة العنيفة التي أبداهها المشركون أمر صلى الله عليه وآله وسلم بتقطيع كروم ثقيف المنتشرة في البساتين المجاورة لإرغامهم على الاستسلام ولكن من دون جدوى.

عندها لم ير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضرورة للاستمرار في الحصار خاصة وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أصبح على أبواب شهر ذي القعدة الذي هو من الأشهر الحرم، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يدرك أن الطائف ستجد نفسها في يوم قريب أشبه بجزيرة منعزلة بعد أن بدأ الإسلام يعم المنطقة وأنها ستسعى إليه عاجلاً أم آجلاً طالبة الانتماء إلى الدين الجديد، إضافة إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يعد يرى خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى إن هي أصرت على موقفها المعادي للإسلام والمسلمين، لذلك كله قرر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رفع الحصار عنهم، وأمر أن يؤذن في الناس بالرحيل فقفل المسلمون عائدين - بعد بضع وعشرين يوماً من الحصار - إلى الجعرانة حيث جمعت السبايا والغنائم الكثيرة التي استولى عليها المسلمون في حنين.

أدركت هوازن حراجة الموقف وأن نساءهم وأموالهم ستصبح غنيمة للمسلمين فيما لو أصرروا على موقفهم ونتيجة التداول فيما بينهم اتفق رأي أكثريتهم على الاستسلام، فأرسلوا وفداً منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلنوا إسلامهم، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يزال في الجعرانة، ثم تابعت وفودهم معلنة إسلامها، فرد عليهم صلى الله عليه وآله وسلم نساءهم وأموالهم وجاء زعيمهم مالك بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم، ورد عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أهله وماله حيث كان صلى الله عليه وآله وسلم قد وعده بذلك إن جاءه مسلماً.

بعد تقسيم الغنائم على المسلمين في الجعرانة رجع صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة فأدى مناسك العمرة، وولى عتاب بن أسيد إمرة مكة، ومعاذ بن جبل تفقيه الناس في الدين وتعليمهم القرآن، وعاد صلى الله عليه وآله وسلم بالمهاجرين والأنصار إلى المدينة المنورة، حيث دخلها في أواخر ذي القعدة بعد انتصارين من أعظم الانتصارات التي حققها في صراعه مع الوثنية وهما فتح مكة، وهزيمة جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل في حنين، وبذلك تم القضاء على أكبر معاقل الشرك والوثنية في المنطقة.

إن نظرة تحليلية على أحداث معركة حنين تقودنا إلى تسجيل الأمور التالية:

أولاً: إن السبب في هزيمة المسلمين في بداية المعركة هو غرور المسلمين بأنفسهم وإعجابهم بكثرتهم وقوتهم؛ حيث لم يسبق لهم أن واجهوا عدواً بهذا العدد الكبير من المقاتلين، فأراد الله سبحانه أن يعلمهم أن الكثرة لا تغني شيئاً عندما تفقد عناصر الإيمان والإخلاص والصبر والتوكل على الله.

(1) الدبابة هنا تعني: آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم. لسان العرب 371/1.

وقد كانت الكثرة في حنين تفقد هذه العناصر فقد كان فيهم ألفا شخص ممن أسلم حديثا وبعد فتح مكة، وكان فيهم جماعة من المنافقين، وفيهم من سيطرت عليه روح الكسب والغنيمة، فخلى الله بينهم وبين عدوهم ولم يتدخل في البداية لغرورهم حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25].

وهذا يعني أن الكثرة ليست سببا للنصر، وأن العبرة ليست في الكمية وإنما في النوعية التي تملك الإيمان وروح الاستشهاد في سبيل الله.

ثانياً: إن الذين عادوا إلى ساحة القتال وقاتلوا بشجاعة فائقة إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام هم القلة المؤمنة فهؤلاء هم الذين حققوا الانتصار في حنين وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة والطمأنينة والدعة فثبتوا في الظروف الحرجة؛ لما يملكونه من عقيدة راسخة، وإيمان قوي، وشجاعة فائقة، وإرادة صلبة، ويقين راسخ بلطف الله ونصره.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 26].

وعليه فالسر في انتصارهم النهائي هو ثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام والقلة من الصحابة الذين يملكون الإيمان؛ فهؤلاء هم الذين أنزل الله عليهم السكينة التي تعني نوعاً من الهدوء والاطمئنان الذي يبعد عنهم كل أنواع الشك والخوف والقلق وأيدهم وسد أزرهم وقوى معنوياتهم وأوجد روح الثبات والاستقامة في نفوسهم وقلوبهم بجنود من الملائكة لم يروها.

وجملة قوله تعالى: ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن المنافقين وأهل الدنيا الذين كانوا مع المسلمين في المعركة لم ينالوا سهما من السكينة والاطمئنان بل كانت السكينة من نصيب المؤمنين فقط، ولذا قال: ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل (وعليكم) مع أن جميع الجمل في الآية بصيغة ضمير الخطاب (كم).

ونزول السكينة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ورفع الخوف الذي كان خوفاً على الرسالة والمؤمنين خاصة بعد فرار أصحابه من المعركة وإلا فهو كالجليل الشامخ لا تزلزله الرياح والعواصف وكذلك ابن عمه علي عليه السلام

ثالثاً: إن على المسلمين أن يعتبروا من حوادث حنين فلا يغتروا بكثرة العدد والعتاد؛ فالكثرة وحدها لا تغني شيئاً بل المهم في ساحة الجهاد وجود المؤمنين المنصهرين بالإيمان ذوي الإرادة الصلبة والعزيمة الراسخة حتى لو كانوا قلة. فإن القلة هي التي استطاعت أن تحول الفشل في حنين إلى انتصار كبير وكانت الكثرة بسبب غرورها في بادئ الأمر سبباً للفشل والفرار من ساحة المعركة.

سلوكه الاجتماعي-3

تقديمه أهل الفضل والتقوى:

عن الإمام الحسين عليه السلام قال: سَأَلْتُ أَبِي، عَنْ دُحُولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (كَانَ دُحُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ).

وَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جُزْأً دُحُولُهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَجُزْءًا لِأَهْلِهِ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جُزْأً جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيُرَدُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَلَا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا.

فَكَانَ مِنْ سِيرَتِهِ فِي جُزْءِ الْأُمَّةِ إِثَارُ أَهْلِ الْفَضْلِ بِإِذْنِهِ، وَقَسَمُهُ عَلَى قَدْرِ فَضْلِهِمْ فِي الدِّينِ: فَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَةِ، وَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَتَيْنِ، وَمِنْهُمْ ذُو الْحَوَائِجِ، فَيَتَشَاغَلُ بِهِمْ وَيَشْعَلُهُمْ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَالْأُمَّةَ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْهُ وَإِخْبَارِهِمْ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ: لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْعَائِبَ، وَأُبَلِّغُوَنِي حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغِي حَاجَتَهُ.

وَيَمْضِي الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا: وَسَأَلْتُهُ عَنْ مَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَخْزُنُ لِسَانَهُ إِلَّا مِمَّا يَعْنِيهِمْ، وَيُؤَلِّفُهُمْ وَلَا يُفَرِّقُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُؤَلِّيهِ عَلَيْهِمْ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِشْرَهُ، وَلَا حُلُقَهُ، وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ وَيُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيُقْوِيهِ، وَيُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَيُوهِّبُهُ، مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ، لَا يَعْمَلُ خَافَةً أَنْ يَعْمَلُوا أَوْ يَمْلُؤُوا، لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عِتَادٌ، وَلَا يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يُجَوِّزُهُ، الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ، أَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعْمُهُمْ نَصِيحَتُهُ وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةُ أَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُؤَاوَزَةً»⁽¹⁾.

...

(1) الترمذي في الشمائل الحمديدية 34/1 رقم 8، والطبراني في الكبير 155/22 رقم 414، والبيهقي في شعب الإيمان 154/2 رقم 1430، وابن عساکر 343/3، وأخلاق النبي وآدابه للأصبهاني 111/1، ودلائل النبوة للبيهقي 290/1. وانظر المصابيح في السيرة 157/1.

(15) الصراع مع اليهود / 1

من المعلوم تاريخيا ومن خلال سير الأحداث أن اليهود أشد الناس حقداً على الإسلام والمسلمين، وقد وقفوا في مواجهة هذا الدين من أول يوم ظهوره بالرغم من كل الحقائق التي كانوا يعرفونها عنه؛ استناداً إلى ما بشرت به توراتهم وكتبهم.

أسباب عداة اليهود للإسلام

ولعل من أسباب عداة اليهود للإسلام والمسلمين هو:

أولاً: أنهم قد وجدوا أن هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الناس إلى دين هو نظام كامل وشامل للحياة، وأن هذا الدين قد جاء بنظام متكامل ومتوازن، واهتم بمحاربة الربا والاحتكار وجميع أنواع وأشكال استغلال إنسان لإنسان آخر، وجعل في أموال الناس حقاً معلوماً للسائل والمحروم، فلم ينسجم ذلك مع أطماعهم، بل رآه يتنافى مع تلك الأطماع ومع أهدافهم ومصالحهم ومع نظرهم للكون والحياة والإنسان.

ثانياً: لقد رأى اليهود كيف أن الإسلام يزداد قوة واتساعاً ونفوذاً يوماً بعد يوم، ورأوا أن نفوذهم - كمصدر وحيد للمعارف والعلوم - بدأ ينحسر ويتلاشى أمام حركة الإسلام ومعارفه وأحكامه، ورأوا أن هذا الدين هو دين العدالة يرفض إعطاء الامتيازات على أسس ما أنزل الله بها من سلطان، ويُبطِل مزاعمهم وادعاءاتهم بأنهم شعب الله المختار بالتزامه بمبدأ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: 13] وهذا الأمر كان يزلزل مكانتهم ويفقدتهم الشيء الذي يعتزون به ويتسائمون به على الناس.

ثالثاً: أن يهود المنطقة آنذاك كانوا أصحاب أموال وأملاك كثيرة في المنطقة، ولكن انتشار الإسلام المستمر في الجزيرة العربية جعلهم يشعرون بأنهم بدأوا يفقدون سيطرتهم وهيمتهم، فبدأوا ينصبون العداة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللإسلام والمسلمين.

رابعاً: حسدهم للعرب أن يكون النبي الذي تعد به التوراة منهم وليس إسرائيلياً، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بَسَمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة 90، 99].

ولعل هذا هو السر في أنهم حينما طلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم أن يدخلوا في الإسلام امتنعوا وأخذوا يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والخلاصة: إن الإسلام حوّل اليهود من موقع القوة والنفوذ بسبب سياساتهم وطروحاتهم إلى موقع الضعف والهوان، وأبطل ادعاءاتهم بالتفوق الاجتماعي والعلمي، وقضى على اليهودية المحرفة وعلى أحلام بني إسرائيل فامتلات قلوبهم بالغيظ والأحقاد على هذا الدين وأتباعه؛ فبدأوا بمعاداة الإسلام ومواجهته بأشكال التآمر والغدر والخيانة.

اليهود في مواجهة الإسلام

حاول اليهود مواجهة الإسلام والمد الإسلامي بكل ما لديهم من قوة عبر الأساليب التالية:

- 1- تشكيك البسطاء وضعاف النفوس بالإسلام.
- 2- طرح الأسئلة التعجيزية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهدف تعجيزه وإفشال دعوته للإيحاء للناس بعدم صدقه في ادعائه للنبوّة؛ لأنه يفترض بالنبي أن يكون قادراً على مثل هذه الأمور، وقد حدثنا القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153].
- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: 118].
- 3- الضغط الاقتصادي على المسلمين فقد ذكر المؤرخون أن رجالاً من أهل الجاهلية باعوا يهودا بضاعة ثم أسلموا وطلبوا من اليهود دفع الثمن، فقالوا: ليس علينا أمانة ولا قضاء عندنا؛ لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فجاء الرد عليهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75].
- 4- تحريض أعداء الإسلام ومساعدتهم بكل ما أمكنهم ولو بالتجسس.
- 5- إثارة الفتن بين شرائح المسلمين ولا سيما بين الأوس والخزرج وبين المسلمين والمشرّكين.
- 6- تأمرهم على حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وتحريضهم الناس عليه.
- 7- محاولات إثارة البلبلة وتشويش الأوضاع بإشاعة الأكاذيب وتخويف ضعاف النفوس من المسلمين وتثبيط الناس عن الخروج للجهاد كما في غزوة تبوك وغيرها.
- 8- تأمرهم مع المنافقين ضد الإسلام.
- 9- نقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة في كل مرة. قال تعالى: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 100].

موقفه صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود

إن جميع محاولات اليهود للقضاء على الإسلام والمسلمين باءت بالفشل الذريع؛ بسبب وعي القيادة الإسلامية العليا.

ولقد صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في البداية على مؤامراتهم وخياناتهم الكبيرة تلك؛ تفاديا لحرب تجر الولايات على الناس في مقره الجديد، وانتظارا للمرحلة المناسبة التي يسهل فيها ضربهم دون المساس بالأولويات الملحة ودون تشتيت قوته العسكرية في مرحلة هو أحوج ما يكون لتركيزها مع العدو الذي يمثل خطرا وجوديا حينها، حتى طمح الكيل وصعدوا من تحدياتهم وأصبحوا يشكلون خطراً حقيقياً لاسيما وأنهم يعيشون في قلب المجتمع الإسلامي، ويعرفون كل مواقع الضعف والقوة فيه؛ فكان لا بُدَّ من صياغة التعامل معهم على أساس الحزم والقوة بدلاً من العفو والتسامح والرفق، فليس من المصلحة أن يُترك اليهود يعيشون في الأرض فساداً، وينقضون العهود والمواثيق ويسددون ضرباتهم للمسلمين كيف وأنى شاءوا، بل لا بُدَّ من الرد الحاسم والحازم والعاقل على كل اعتداء، ومواجهة كل تحد وتآمر وكيد وخيانة قبل أن يكون الندم حيث لا ينفع الندم.

ويمكننا أن نقول: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واجههم بعد أن اتضح نقضهم لكل العهود والمواثيق بأسلوبين أو اتجاهين:

الاتجاه الأول: عمليات القتل المنظمة لرموزهم وبعض أفرادهم.

الاتجاه الثاني: الحرب الشاملة والمصيرية ضدهم.

الاتجاه الأول: وفيه اتبع صلى الله عليه وآله وسلم أسلوب عمليات القتل المنظمة لبعض أفرادهم ورموزهم الذين ظهر كيدهم، وأعلنوا الحرب على الإسلام من خلال الجهر بالتحريض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهجائه، والتعرض لنساء المسلمين بالأذى، وكانوا يشكلون خطراً جدياً على صعيد استقرار المنطقة، فتم القضاء على أبي عفك اليهودي الذي كان يحرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول فيه الشعر، على يد سالم بن عمير، وقُتلت العصماء بنت مروان اليهودية على يد عمير بن عون ليلاً، حيث كانت تعيب الإسلام والمسلمين، وتؤنب الأنصار على اتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتقول الشعر في هجوه صلى الله عليه وآله وسلم وتحرض عليه.

وأرسل صلى الله عليه وآله وسلم أحد أصحابه في السنة الثالثة بعد الهجرة فقتل كعب بن الأشرف الذي كان قد ذهب إلى مكة بعد حرب بدر، وحرّض المشركين ولم يخرج منها حتى جمع أمرهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعندما سأله المشركون: أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ أجابهم: بل أنتم أهدى منهم سبيلاً، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51] وكان يهجو النبي في شعره، ويتعرض بالأذى لنساء المسلمين، وهكذا تابعت عمليات القتل لبعض أفراد اليهود فقتل ابن سنيّة، وأبو رافع بن أبي الحقيق من يهود خيبر وغيرها.

لقد كانت هذه العمليات بمثابة جزاء عادل وإنذار حازم لكل من ينقض عهدا ويتآمر على مصلحة الإسلام العليا، وقد نظمت هذه العمليات ونفذت ببراعة فائقة وذكاء وعبقرية، فأرعبت اليهود وأخافتهم، ولا سيما بعد قتل بن الأشرف، حتى أنه لم يبق في المدينة ومحيطها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

الاتجاه الثاني: ولكن بالرغم من ذلك فإن اليهود لم يتراجعوا عن الدس والتحريض والتآمر واستمروا في عنادهم وتماديهم في إيذاء المسلمين ونشر الفساد ونقضهم للمعاهدات التي وقعوا عليها بملء اختيارهم وكان ذلك يتفاقم بين حين وآخر إلى درجة بالغة الخطورة؛ فكان لا بُدَّ من التعامل معهم بأسلوب آخر فكانت الحرب الشاملة والمصيرية ضدهم حيث لا يمكن اجتثاث مادة فسادهم بغير ذلك.

فحاربهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في داخل المدينة (بني قينقاع، وبني النضير) وحارب في محيطها (بني قريظة) وحاربهم في (خير) التي كانت تمثل المعقل الأساسي لهم في شبه الجزيرة العربية.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

سلوكه الاجتماعي-4

تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقدر ما يحث على التزام فضيلة التواضع في التعامل والعلاقات الاجتماعية فإنه من ناحية عملية كان المتواضع الأول في المسلمين بل النموذج المثالي الرائع في التواضع وبساطة العيش.

- فقد روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما أكل متكئا منذ أن بعثه الله عز وجل حتى قبض تواضعا لله عز وجل.
- وعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعقل البعير ويحلب الشاة ويحلب دعوة المملوك على خبز الشعير.
- وعلى عظمته وعلو مقامه فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يبدو فردًا من الناس لم يحط نفسه بهالة خاصة؛ فقد كان يجلس بين أصحابه كواحد منهم، وكان قريبًا سهلًا يلتقي بأبعد الناس وأقربهم، أصحابه وأعداءه، وأهل بيته، والسفراء والوفود بلا تصنع ولا تكلف⁽¹⁾ فكل شيء كان يصدر عنه كان طبعيا على سجيته.
- ومن تواضعه أنه كان يبدأ بالسلام على الناس وينصرف إلى محدثه ب كله، الصغير والكبير والمرأة والرجل.
- كان آخر من يسحب يده إذا صافح، لم يكن يأنف من عمل يعمل لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار أو مسكين، وكان يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته بنفسه، ولم يستكبر عن الإسهام في أي عمل يقوم به أصحابه وجنده، فقد أسهم في بناء المسجد في المدينة وعمل في حفر الخندق في غزوة الأحزاب، وشارك أصحابه في جمع الخطب في إحدى سفراته، وعندما قال له أصحابه نحن نقوم بذلك عنك قال صلى الله عليه وآله وسلم: قد علمت أنكم تكفونني ولكن أكره أن أتميز عنكم فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا عن أصحابه.

- وكان متواضعا في ملبسه ومشربه ومأكله ومسكنه.

- وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أمرني ربي بسبع خصال: حب المساكين والدين منهن، وأن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن أصل رحمي وإن قطعني، وأن أنظر إلى من هو أسفل مني ولا

(1) هذا لا يعني الإهمال وعدم أخذ الحيطة والحذر، فقد تقدم الكلام عن مدى اهتمامه بالجانب الأمني وحذره من الناس. انظر

أنظر إلى من هو فوقى، وأن لا يأخذنى فى الله لومة لائم، وأن أقول الحق وإن كان مرًا، وأن لا أسأل أحدًا شيئًا».

...

(16) الصراع مع اليهود / 2

الحروب الشاملة ضد اليهود

أ- غزوة بني قينقاع:

إن ممارسة اليهود قد هيأت الجو للتخلص من بغيتهم وإفسادهم ومكرهم على مراحل، وكان أول ما قام به صلى الله عليه وآله وسلم هو مواجهة بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة المنورة.

والسبب الذي حمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على البدء بإجلاء بني قينقاع دون سائر اليهود هو: أنهم كانوا يسكنون داخل المدينة وفي حي من أحيائها، وكانوا أول من غدر وخان من اليهود؛ فكان لا بُدَّ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من أن يطهر المدينة من هذا العدو الداخلي الذي يطعن في الظهر، ويحيك المؤامرات ويرتكب الخيانات.

ويذكر المؤرخون في هذا الصدد: أن بني قينقاع كانوا قد عاهدوا صلى الله عليه وآله وسلم على المسالمة وعدم معاونة الأعداء، فلما كانت حرب بدر أظهروا البغي والحسد ونقضوا العهد، وكانوا أول من استجاب لطلب قريش في نصب العدا للمسلمين والغدر بهم.

وقد صعدوا من تحديهم للمسلمين عندما دخلت امرأة مسلمة سوق الصاغة في المدينة الذي كان تحت سيطرتهم، فجلست عند صائغ منهم لأجل حلي لها، فاجتمع عليها جماعة من اليهود وأرادوها أن تكشف عن وجهها فأبت فعمد يهودي من خلفها من حيث لا تعلم فعقد ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأها فضحكوا منها، فصاحت تستغيث بالمسلمين فوثب رجل من المسلمين على من فعل ذلك فقتله، وشد اليهود على المسلم فقتلوه، فاستنجد أهل المسلم بالمسلمين ووقع بينهم وبين بني قينقاع الشر، فجمعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سوقهم وحذرهم وطلب منهم أن يكفوا عن أذى المسلمين، وأن يلتزموا بعهد المواعدة، أو ينزل بهم ما أنزله بقريش، فقال لهم: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم» فاستخفوا بوعيده وأجابوه: لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة مكتنتك من رقابهم إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، وسترى منا ما لم تره من غيرنا.

فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المناسبة قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصَارَةِ فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 12، 13]، وقوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58].

ولذلك لم يبق أمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن يقاتلهم فصار إليهم، وكان عددهم حوالي سبعمائة مقاتل، وسلم الراية لعلي عليه السلام وحاصروهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد حصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، واستسلموا وطلبوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخلي سبيلهم وينفيهم من المدينة، على أن يكون لهم نساؤهم والذرية، وله أموالهم والسلاح فقبل منهم ذلك، وأخذ أموالهم وأسلحتهم ووزعها بين المسلمين، وطردهم من المدينة إلى أذرعات بالشام، ويقال: إنه لم تدر عليهم السنة حتى هلكوا جميعاً⁽¹⁾.

ب- غزوة بني النضير:

وجاء دور بني النضير بعد قينقاع؛ فقد ظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكل أحد أنهم يكيدون له سرًا ويدبرون أمرًا للغدر به واغتياله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد شرعوا في تنفيذ ذلك وساروا في هذا السبيل خطوات، فقرر إجلاءهم عن مواضعهم بعد أن ظهر للعيان فسادهم، وقد تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم كما تعامل قبلهم مع بني قينقاع بمزيد من الرفق والتسامح؛ حيث أندرهم في البداية بأن يخرجوا من حصونهم وينزحوا من يثرب في مدة عشرة أيام، ولكنهم رفضوا الإذعان لهذا الإنذار أول الأمر، ثم بدا أنهم أذعنوا لحكم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ورضوا بالجلاء عن يثرب، لكن جماعة من المنافقين من بني عوف وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بعثوا إليهم، أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نسلمكم، إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم⁽²⁾.

إلا أن عبد الله بن أبيّ خذلهم وغدر بهم، وأنزل الله سبحانه بهذه المناسبة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِنَ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [الحشر: 11، 12].

لذلك امتنعوا عن الإذعان لحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واحتتموا خلف حصونهم، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: 14]، وكانت حصونهم محكمة، وكان من غير الممكن فتحها في مدة وجيزة؛ فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقطع نخيلهم وحرقتها، ولعل النخيل الذي أحرق كان ذلك الذي يعيق حركة القتال، فناداه اليهود يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها فنزل الوحي الإلهي مخاطبًا المسلمين ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5].

فالسّر في قطع النخيل هو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين أرادوا كسر عنجهية بني النضير وإفهامهم مدى التصميم على المواجهة والتحدي حتى يفقدوا الأمل بجذوى المقاومة؛ وليفهموا - بصورة عملية - أنهم إذا كانوا

(1) ابن هشام 50/3، الطبقات 28/2، الواقدي 176/1، والطبري 479/2، وابن سيد الناس 443/1، وأسباب النزول 167.

(2) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ج 3/200.

يطمعون بالبقاء في أرضهم فإن عليهم أن يقبلوا بها أرضاً محروقة، جرداء ليس فيها أي أثر للحياة، ولا تستطيع أن توفر لهم حتى لقمة العيش التي لا بُدَّ منها.

وهذا هو ما يفسر لنا قوله تعالى في تعليل الإذن الإلهي بقطع النخل ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ فقد كان قطع النخل ضرورياً ولازماً من أجل قطع آمال بني النضير وكل آمال غيرهم أيضاً، وخزيهم وخزي سائر حلفائهم وفي مقدمهم عبد الله بن أبي ومن معهم من المنافقين، ثم كل من يرقب الساحة ويطمع في أن يستفيد من تحولاتها في تحقيق مآربه ضد الإسلام والمسلمين.

ويظهر أن قطع النخل وإحراقه كان سبباً في تسرب اليأس إلى قلوبهم، إذ وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إما الإذعان لحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإما الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق نخيلهم، فاختاروا الإذعان لحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة بعد أن تمكن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من قتل عشرة من فرسانهم فطلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجليهم ويكف عنهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فرضي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فحملوا من أموالهم ما استقلت به فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

ويشير القرآن إلى غرور بني النضير وامتناعهم بحصونهم طائنين أنها ستمنعهم من أمر الله كما يشير إلى هزيمتهم وتخريبهم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين المجاهدين بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2] ⁽¹⁾.

(1) الطبقات 57/2، والطبري 550/2، وابن هشام 199/3، والواقدي 363/1، وعيون الأثر 73/2، ومغلطاي ص 243.

سلوكه الاجتماعي-5

مدرسة الحلم والعفو:

- من أبرز ما اتصفت به الأخلاق النبوية هو الحلم عن أخطاء الآخرين والعفو عن سيئاتهم. ومن المعلوم أن الحلم هو عبارة عن ضبط النفس والضغط على المشاعر والانفعالات النفسية إزاء أخطاء الآخرين وممارساتهم السلبية؛ لئلا تتفجر غضبا وحقداً وغيظاً ينعكس سلباً على السلوك والممارسات.
- وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فضيلة الحلم عن المسيء نموذجاً رائعا كسائر أخلاقه، فهو لا يعرف الغضب إلا حين تنتهك للحق حرمة، أما سوى ذلك فإنه كان أبعد الناس عن الغضب والانفعال، فهو أحلم إنسان عمن أساء إليه بكلمة أو تصرف خاطئ أو سلوك مشين.
- قال أنس بن مالك: خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنين فما سبني سبة قط، ولا ضربني ضربة، ولا انتهزني، ولا عبس في وجهي، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه.
 - وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ضرب امرأة قط، ولا ضرب خادماً قط، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله عز وجل، ولا ينل منه فانتقم من صاحبه إلا أن تنتهك محارمه فينتقم.
 - وعن أنس أيضاً قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فأخذ بردائه فجذبته (جذبه) جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضحك وأمر له بعتاء.
 - وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أوصاني ربي بتسع: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ومنطقي ذكراً، ونظري عبراً.
- وكما كان في صفة الحلم فقد كان في صفة العفو أيضاً.
- ومن عظيم عفوه ما تجلّى يوم فتح مكة؛ فبالرغم من القسوة والوحشية اللتين عومل بهما جسد عمه حمزة بن عبد المطلب في معركة أحد لم يلجأ إلى الانتقام من وحشي قاتل حمزة ولا من هند زوجة أبي سفيان التي مثلت بجسده مع أنهما كانا في قبضته وكان يستطيع معاقبتهما والنيل منهما.

• كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم عفا عن أهل مكة يوم الفتح ووقف منهم موقفًا رحيماً بالرغم من كل العذاب والمعاناة والآلام وأنواع الأذى الذي صنعتة قريش بالمسلمين قبل الهجرة وبعدها، وبالرغم من مؤامراتها وحروبها وإرهابها؛ فإنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف على باب الكعبة بعد الفتح مخاطباً أهل مكة ما ترون أي فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وعندما قال أحد أصحابه: اليوم يوم الملحمة اليوم نسبي الحرمة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: اليوم يوم المرحمة اليوم ترعى الحرمة.

بهذه النفس الرحيمة وبهذا الخلق الرفيع والسلوك الحضاري الذي لم يعرف التاريخ له نظيراً يعامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد الناس عداوة له بعد أن تمكن منهم ومن رقابهم إنه الخلق النبوي المحمدي الأصيل.

...

(17) الصراع مع اليهود / 3

ج- غزوة بني قريظة

لقد كان بين يهود بني قريظة وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد واتفاق على أن لا يحاربهم ولا يجاربوه، ولا يعينوا عليه أحدًا، غير أنهم نقضوا وتعانونوا مع قريش والمنافقين في معركة الأحزاب ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته.

فلما سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخيانتهم أرسل إليهم سعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة، لتذكيرهم بالعهد والميثاق فأساءوا الرد، وأصروا على نقض العهد، فسكت عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى هزمت قريش والأحزاب، وكسب المسلمون معركة الخندق.

وفي نفس اليوم الذي رجع فيه صلى الله عليه وآله وسلم من ساحات المواجهة في الخندق قرر الهجوم عليهم حتى إنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر من كان معه من المسلمين ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة؛ لكسب الوقت واستثمار الموقف النفسي المنهار لدى اليهود وحلفائهم من المشركين والمنافقين، ولكي لا يعطيهم الفرصة لإعادة ترتيب أوضاعهم وإنشاء علاقات تزيد في قوتهم، فأعطى رايته لعلي عليه السلام وتبعه المسلمون بالرغم مما كانوا عليه من التعب والسهر خلال حصار الأحزاب لهم.

ولا شك في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم أنه إذا عفا عنهم اليوم فسيمثلون معه الدور نفسه الذي مثله بالأمس حينما انضموا لأعدائه وتآمروا سرًا معهم فهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يأمن الغدر والتآمر اليهودي ضده مرة أخرى، بل ربما يشتد خطرهم لو تركهم ويستعصي على المسلمين بعد ذلك استئصالهم.

طوق المسلمون اليهود في حصونهم من جميع الجهات، وأخذوا يرمونهم بالحجارة والسهام، واستمر الحصار أيامًا قيل: عشرة أيام، وقيل: أكثر من ذلك.

وخلال الحصار أرسل صلى الله عليه وآله وسلم إليهم بعض أصحابه لمواجهتهم فرجعوا منهزمين؛ فبعث عليًا عليه السلام فكان الفتح على يديه، واستسلموا وطلبوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعاملهم كما عامل بني النضير من قبل، فأبى عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك.

وتحكي معظم كتب التاريخ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عرض عليهم أن يختاروا من الأوس -وهم حلفاؤهم- من شاءوا ليحكم فيهم، فحكم سعد بن معاذ فيهم بقتل الرجال أي المقاتلين منهم فقط ممن نقض العهد وقتل، وسبي النساء والذاري، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم. كما رووا أنه قتل الأسرى من الرجال بل وحتى من كان قد بلغ الحلم من أولادهم.

إضاءة على الموضوع

هناك إشكالان في الموضوع؛ الأول حول من الذي حكم في بني قريظة؟ والثاني فيما يتعلق بقتلهم بعد الأسر. ولا شك أن الموضوع - خاصة الأخير - يتطلب شيئاً من البحث والتدقيق من قبل الباحثين والمهتمين، لصلته الوثيقة بواقعنا اليوم، والمجال في هذا الكتاب لا يحولنا لبحث مستفيض، لكن بالإمكان الإشارة باختصار شديد لما قد يمكن أن يكون منطلقاً للباحث فنقول:

بالنسبة لما قيل من تحكيم سعد فالذي يظهر، والذي يبدو منطقيًا في هكذا مسألة أن الحكم فيهم لن يكون إلا بتوجيه إلهي عبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ومن خلال مراجعة بعض مصادر أئمتنا «عليهم السلام» اطلعت على نص للإمام أبي الفتح الديلمي عليه السلام حكاه الشرفي في المصاييح حيث قال: (قال في البرهان: حتى نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي نزل به جبريل عليه السلام بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، وعلى أن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وأرسل بهذا الحكم سعد بن معاذ ولم يكن لسعد فيهم حكم، انتهى) (1).

وفي شرح النهج جاء فيما أسماه (مفاخرة بين الحسن بن علي ورجال من قريش) عن الإمام الحسن بن علي «عليهما السلام» مناشدته للرهط الذي استدعاهم معاوية؛ يقول عليه السلام: «... وأن رسول الله «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا، فبعث علياً بالراية، فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله.. إلخ» (2) وقريب من هذا أشار إليه السيد الوالد «رحمة الله عليه» في كتابه (التيسير في التفسير).

أما بالنسبة لما قيل من قتل الأسرى فلنا وقفة أيضاً مع ما ذكر حول الحادثة، ولو أنها هي الرائية والمتداولة في كتب التاريخ، والأقرب من خلال النص القرآني وبعض النقل التاريخي ومن خلال نظرة السيد عبد الملك (حفظه الله) في مناقشتي للموضوع معه؛ أنها وقعت اشتباكات بينهم وبين المسلمين، فالنص القرآني يقول ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب 26] وهذا يفهم منه أن الذي حدث حالتان: حالة قتل لفريق قتلوا أثناء معركة، وربما رموز القوم ورؤوسهم ممن حَزَبَ على المسلمين، وحالة أسر لفريق آخر، والآية توحى بأن الأسرى لم يقتلوا، ولو كان الأسرى قتلوا أيضاً لما كان هناك معنى للفرز بين القتل والأسر المذكور في الآية.

وكلام الإمام الحسن آنفاً يصرح بنزولهم من حصونهم مقاتلين، وفي كلام الإمام المرتضى محمد بن الهادي «عليهما السلام» ما يدل على وقوع الاشتباك معهم حيث يقول في معنى الآية المذكورة: «هذه نزلت في اليهود لما حاربوا النبي صلى الله عليه وتظاهروا عليه (ووالوا) عدوه، فلما حاصرهم صلى الله عليه وآله وسلم وحاربهم أذلهم الله وأنزلهم كما قال ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ وهو الإذلال لهم والإرغام والقهر، غير طائعين، فكان إنزاله لهم من عزهم إرغاماً، وإنما اشتقت الصياصي من النواصي لأنه إذا أخذ بناصية الإنسان فقد بلغ ذله، وكذلك هؤلاء هدم عزهم وأذل خدودهم بالقهر لهم، فأذهب بذلك نخوتهم وفرق أمرهم، وقد قيل: إن الصياصي الحصون التي أخرجوا منها وكانوا فيها، وليس هذا بمخرجها، ولا يجوز في اللغة، لأنه لو كان اسم الحصون صياصياً لجاز أن يقال في الحصن الواحد صيصياً ولو

(1) المصاييح في تفسير سورة الأحزاب.

(2) شرح النهج ج 6.

قال ذلك قائل لخرج من المعنى، فلما لم يجر على ذلك صح أنها ليست الحصون، والمعنى الأول أصوب وأحسن في التأويل، والدليل على أن الصياصي مشتقة من النواصي أن العرب تُسمِّي قرون الأوعال والبقر صياصي، وقد قال بعض العرب: يسمى شوامخ الجبال صياصي لعلوها وامتناعها، وقد قال الشاعر:

وهم ستة شمش الصياصي كأنها

مجلة حو عليها البراقع»⁽¹⁾

أضف إلى ذلك أن الأسر لا يكون إلا في معركة، أما الذين سلموا أنفسهم للعدالة فليسوا أسرى، ويجب إخضاعهم للمحاكمة على قدر جرمهم. والله أعلم.

وعلى كل حال فإن من المهم أن تخضع المسألة هذه وغيرها كثير من مسائل السيرة النبوية لمزيد من التحقيق. وقد اختلف المؤرخون في عدد القتلى والأسرى منهم، فالبعض يقول: إنهم أربعون فقط، ومنهم من قال ثلاثمائة، والبعض بالغ في ذلك فأوصلهم إلى الألف، بينما بلغ عدد الأسرى ما بين السبعمائة وخمسين، والألف، ويبدو أن هناك مبالغة في عدد الأسرى لأن رواية ابن إسحاق تنص على أنهم حبسوا في دار بنت الحارث (وهي امرأة من بني النجار) ولو كان العدد كما قيل لما اتسعت لهم تلك الدار خصوصاً بيوت ذلك الزمان.

ومهما يكن فإن المسلمين قد تخلصوا من أشد أعداء الدولة الداخليين؛ حيث قضت هذه الغزوة القضاء التام على جماعات اليهود في المدينة وضواحيها الذين كانوا يهددون أمنها واستقرارها بالتآمر والتجسس والإشاعات والتخريب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى انسحاب جيوش الأحزاب وغزوة بني قريظة وانتصار المسلمين فيها بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: 25-27]⁽²⁾.

د - معركة خيبر

كان يهود خيبر من أقوى الطوائف اليهودية في بلاد الحجاز، وأكثرهم عددًا وعدة، وأمنعهم حصونا، فخيبر قرية من قرى اليهود المجاورة للمدينة، تقع على قمة جبل ويحيطها حصن حجري ظن أهله أنه مانعهم من إرادة الحق، وسيوف المجاهدين المؤيدين بنصر الله سبحانه، ويهود خيبر على عادة اليهود، قد استحكم بهم الغرور وغرهم المال والسلاح الذي بأيديهم.

(1) فقه المرتضى المكتبة الشاملة.

(2) ابن سعد 74/2، وابن هشام 244/3، والواقدي 496/2، وسبل الهدى 7/5، والطبري 581/2، والبداية والنهاية 133/4، وعيون الأثر 103/2.

وفي حصون خيبر عشرة آلاف مقاتل، كانوا يخرجون كل يوم صفوفًا يستعرضون قوتهم، ويسخرون بقوة المسلمين، وهم يرددون: محمد يغزونا هيهات ! هيهات.

وهذا الاعتداد بالقوة لم يكن ليخدع يهود خيبر وحدهم بل كان يهود المدينة الذين يعيشون وسط المسلمين قد اتخدعوا به أيضا، فراحوا يهددون المسلمين بتلك القوة ويحاولون إظهار التفوق العسكري لخيبر على المسلمين لإشاعة الحرب النفسية وإضعاف الروح المعنوية للمسلمين.

وكانوا يرددون على مسامع المسلمين: ما أمتع والله خيبر منكم، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذرى الجبال، إن بخير لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟⁽¹⁾.

أما الإعلام الإسلامي في المدينة فكان يرد منطلقا من الثقة بالله والإصرار على الجهاد والمقاومة: إن خيبر قد وعدنا الله نبيه أن يُغنمه إياها؛ ولا خلف لوعده الله بالنصر.

وفي ظل هذه الأجواء راح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يصبر ويصبر على كل أذى خيبر؛ بسبب ما كانت تمارسه ضد الإسلام والمسلمين فمنها: انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربية وتحريضها ضد المسلمين في غزوة الخندق، وقد بذلوا الأموال في ذلك، ومنها: خرج حيي بن أخطب ودفع بني قريظة إلى نقض العهد في اللحظات العصيبة، وقد غدت خيبر بمرور الأيام ملجأ يأوي إليه اليهود المبعدون عن المدينة، ينتظرون الفرصة للانتقام من الإسلام، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها.

وقد اتضح هذا في الأيام القليلة التي أعقبت هزيمة بني قريظة؛ إذ بلغت خيبر أنباء هزيمة بني قريظة فاتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسأله الرأي فأجابهم: نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء، وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، قد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب.. ثم نسير إليه في عقر داره، فقالت اليهود: هذا الرأي، وها هم يحرضون غطفان وغيرها ويعِدُونهم أن يمنحوهم ثمر خيبر لسنة إن هم تحالفوا معهم ضد الإسلام والمسلمين.

لهذه الأسباب وغيرها عقد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العزم على غزوهم في حصونهم ومعقلهم المنيع في خيبر، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة؛ فجمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيشه وتكتم على مسيره، وخرج من المدينة في ألف وستمئة مقاتل من المسلمين، وأعطى رايته لعلي عليه السلام وسلك طرقا تحفظ سرية تحركه، فلم يشعر اليهود إلّا وجيش المسلمين قد نزل بساحتهم ليلاً وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد وعد الله بالنصر وأن يرده إلى المدينة فاتحا غانماً.

وحين فوجئوا بقوات المسلمين تشاوروا فيما بينهم واتفقوا على القتال فأدلو نساءهم وأولادهم وأموالهم في بعض الحصون، وأدخلوا ذخائرهم في حصون أخرى بينما دخل المقاتلون منهم في حصن عُرف بحصن النطاة، والتقى الجمعان حول هذا الحصن ودار قتال شديد بينهما حتى جرح عدد كبير من المسلمين.

(1) انظر الواقدي المغازي ج2 ص237.

وكان الهجوم على الحصن قد بدأ بإرسال النبي صلى الله عليه وآله وسلم سرية من المسلمين بقيادة أبي بكر غير أنه لم يستطع أن يفتح ثغرة في تحصينات العدو بل عاد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهزماً، ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمر بن الخطاب لمعاودة الكرة فرجع منهزماً يمين أصحابه ويمجنونه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك قال: **«لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه كراماً غير فرار»**. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام وهو أرمد فتفل في عينيه ثم قال: **«خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»**.⁽¹⁾

فخرج علي عليه السلام ومعه المقاتلون المسلمون فدار قتال بينهم وبين اليهود على أبواب الحصن، وقتل علي عليه السلام مرحباً وهو من أبطال اليهود وصناديدهم بعدما كان قد قتل أخاه الحارث وأكثر من ستة من فرسان اليهود على باب الحصن، فاستولى الخوف على اليهود والتجأوا إلى الحصن وأغلقوا بابه، وكان من أمنع الحصون وأشدها، وقد حفروا حوله خندقاً يتعذر على المسلمين اجتيازه، فاقتلع علي عليه السلام باب الحصن، وجعله جسراً فعبر عليه المسلمون واستبسلوا بقيادة علي عليه السلام فهاجموا بقية الحصون وتغلبوا على من فيها حتى انتهوا إلى حصني الوطيح والسلام وكانا آخر حصونهم المنيعة وفيهما النساء والذاري والأموال.

ولما شعر اليهود بأنه أسقط ما في أيديهم وأن المسلمين سيأسروهم ويقتلونهم إن هم أصروا على موقفهم استسلموا وطلبوا العفو من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأجابهم صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك بعد أن استولى على أموالهم وتم الاتفاق بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن تبقى الأرض في أيديهم يعملون فيها بنصف الناتج والنصف الآخر للمسلمين⁽²⁾.

وبعد فتح خيبر رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً وسروراً: بقدم جعفر، أم بفتح خيبر»**؟⁽³⁾.
إن انتصار المسلمين الساحق في خيبر يعود إلى العوامل التالية:

(1) حديث الراية روي بعدة طرق وعدة ألفاظ: فأخرجه البخاري 1096/3 رقم 2847، ورقم 3973، ورقم 3498، 3499، و مسلم 1871/4 رقم 3404، والترمذي 596/5 رقم 3724، وأحمد 214/1 رقم 778 ورقم 1608، و 430/8 رقم 22884، والنسائي في الخصائص ص 32 رقم 9، وص 70 رقم 52، وابن ماجه 43/1، 44 رقم 117، والحاكم 108/3. ومجمع الزوائد 151/5، و 124/9، والحاكم 83/3، وأبو نعيم في الحلية 101/1 رقم 189، 190،، وصحيح ابن حبان 377/15 رقم 6932، والطبراني في الكبير 152/6 رقم 5818، والمغازي في المناقب 180 رقم 217، والجامع الكبير للسيوطي 244/16 رقم 7819، وقال: أخرجه الدارقطني والخطيب البغدادي 5/8، وابن البطريق في العمدة 77.

(2) ابن هشام 342/3، والبداية والنهاية 206/4، وطبقات ابن سعد 106/2، والواقدي 633/2 وما بعدها. وتأريخ الطبري 16-9/3، وعيون الأثر 181/2، ومغلطاي ص.

(3) ورد بألفاظ كثيرة، انظر الطبراني في الأوسط رقم 2003، وفي الكبير رقم 1469، 1470، والحاكم 664/2، وابن أبي شيبه 380/6 وغيرهم.

- 1- التخطيط العسكري والتكتيك الحربي الدقيق.
- 2- تحصيل المعلومات الدقيقة عن تمرکز العدو داخل الحصون.
- 3- تفاني الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وشجاعته وبطولته النادرة والتسديد الإلهي الذي مكنه من قتل أبطال اليهود وفرسانهم وقلع باب خير وفتح الحصن على يديه⁽¹⁾.

هـ- يهود فدك

لما سمع يهود فدك (القرية اليهودية المجاورة لخير) بما حل برفاقهم في خير بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة أراضيهم فوافق النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك وصالحهم على نصف ناتج الأرض، فكانت خير ملكاً للمسلمين؛ لأنه استولى عليها بالحرب، وفدك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة؛ لأنه تملكها بالصلح، وقد وهبها صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة الزهراء عليها السلام في حياته وسلمها إياها وجعلت عمالها فيها وصارت هي المشرفة على أعمالها وعلى ناتجها، وكانت تصرف ناتجها على فقراء بني هاشم وحسبما تشاء.

فقد جاء في الدر المنثور للسيوطي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: لما نزلت الآية ﴿وَأْتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الإسراء: 26] دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة عليها السلام وأعطاهما فدكاً كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس⁽²⁾.

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن أبي سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وآله وسلم وهبها لفاطمة عليها السلام، ولما انتهت الخلافة لأبي بكر كان أول ما قام به أن انتزعها من يدها؛ بحجة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم - على زعمه - قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة. وأصر على انتزاعها من يدها بالرغم من أنها طالبت بها وأقامت البينة على ملكيتها لها⁽³⁾.

(1) راجع عوامل الانتصار في كتاب سيد المرسلين ج2 ص405 - 408.

(2) انظر فضائل الخمسة 2/ 126، ومسنَد أبي يعلى 343/2 رقم 1075، 534/2 رقم 1409، وهو في كنز العمال برقم 8696 عن أبي سعيد.

(3) انظر شرح التجريد 2/ 120، وشفاء الأوام 548/1، وينظر حول فدك كتاب الاعتصام 2/ 205 - 266 فقد أوضح الإمام القاسم بما فيه كفاية، وناقش العلامة بدر الدين الحوثي رحمه الله بعض الروايات التي وردت في فدك في كتابه الزهري، والعلامة مجد الدين رحمه الله في لوامع الأنوار 78/2. وشرح التجريد 4/ 491، وشرح نهج البلاغة 4/ 824 - 874، والحديث أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية بلفظه 4/ 231، ونحوه البخاري 3/ 1126 رقم 2926 (ر)، ومسلم 3/ 1380 رقم 1759، وغيرهما.

و- يهود وادي القرى وتيماء

أما وادي القرى التي كان أهلها من اليهود الحريين الذين تأمروا على الإسلام والمسلمين فقد توجه إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفرض الحصار عليها، ودعا أهلها إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دمائهم وحسابهم على الله، ولكنهم أبوا وأصرروا على القتال، وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة والنبي يعرض عليهم الإسلام وهم يأبون مما دفعه إلى تشديد الحصار عليهم حيث تمكن من فتح بلدهم عنوة، وبقي هناك أربعة أيام قسم خلالها الغنائم على أصحابه وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها.

ولما بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلامية صالحوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الجزية وأقاموا في بلدهم⁽¹⁾.

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تم تصفية آخر تجمع يهودي لعب دوره في مواجهة الإسلام ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامرات ضده، وقضي قضاء تاماً على القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية لليهود الحجاز، وغدت كلمة الإسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية.

(1) انظر: المغازي للواقدي: ج 2 ص 709- 711 والفتوح للبلاذري: ج 1 ص 39، والتنبيه والإشراف للمسعودي ص 224-225.

سلوكه الاجتماعي-6

مدرسة الوفاء :

من الخصال الإنسانية والأخلاقية في شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي خصلة الوفاء، الوفاء بالوعد، والوفاء بمعناه الإنساني والأخلاقي الواسع الذي يقود إلى صنع الجميل تجاه من أحسن، أو أسدى خدمة أو معروفًا.

• فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد التقيد بالوعد التي يعطيها للآخرين مهما كانت صعبة.

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعد رجلاً إلى صخرة فقال: أنا هاهنا حتى تأتي، فاشتدت الشمس عليه فقال له أصحابه: يا رسول الله لو أنك تحولت إلى الظل فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعدته إلى هنا وإن لم يحنى كان منه المحشر»⁽¹⁾.

وعن أبي الحمساء قال: بايعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أي بعته شيئاً) قبل أن يبعث فوعدته مكاناً فنسيته يومي والغد فأتيته يوم الثالث فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا فتى لقد شققت عليّ أنا هنا منذ ثلاثة أيام»⁽²⁾.

• وكان صلى الله عليه وآله وسلم وفيًا تجاه كل من أحسن وعمل معروفًا أو وقف موقفًا إيجابيًا تجاه الإسلام والمسلمين.

فقد كان يتحين الفرصة ليسدي إلى النجاشي ملك الحبشة بعض إحسانه ويكافئه على صنيعه وموقفه تجاه المسلمين الذين هاجروا إلى بلاده فأكرمهم ورحب بهم.

فقد روي أن وفداً أتى من عند النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقام صلى الله عليه وآله وسلم يخدمهم فقال له أصحابه: نحن نكفيك ؛ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم⁽³⁾.

(1) لعله: الجشر: يقال: جشر عن أهله أي غاب عنهم، فالمعنى: وإن لم يحنى كان منه التباعد والغيبة. المحيط في اللغة 84/2.

(2) أبو داود 299/4 رقم 4996، والبيهقي 198/10.

(3) نهاية الأرب 174 / 18.

وروي أنه لما أتى جبرائيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينعي النجاشي وموته بكى عليه وقال: إن أخاكم أصحمة (وهو اسم النجاشي) مات، ثم خرج إلى الجبانة وكبر خمس تكبيرات⁽¹⁾.

• وكان صلى الله عليه وآله وسلم وفيما لزوجته خديجة لإحسانها فكان يذكرها باستمرار، وكان يردد: «خديجة وأين مثل خديجة؟! صدقتني حين كذبتني الناس، وآزرتني على دين الله وأعانتني بماها»⁽²⁾.

• وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين جاءه خبر استشهاد جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة كان إذا دخل بيته كثر بكأؤه عليهما ويقول: كانا يحدثاني ويؤنساني فذهبا جميعًا.

وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم دخل على آل جعفر فشَمَّ أولاده وذرفت عيناه! وجعل يقول لأسماء امرأة جعفر: «لَا تَقُولِي هُجْرًا وَلَا تَضْرِبِي خَدًّا، اللَّهُمَّ قَدِّمِ جَعْفَرَ إِلَى أَحْسَنِ الثَّوَابِ، وَاخْلُفْهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ بِأَحْسَنِ مَا خَلَقْتَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ»، وقال لأهله: «لَا تَغْفُلُوا عَنْ آلِ جَعْفَرَ؛ اصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا فَقَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ». ودخل على ابنته فاطمة عليها السلام وهي تقول: وَأَعْمَاءُ؛ فقال: «عَلَى مِثْلِ جَعْفَرَ فَلْتَبْكِي الْبَوَاكِي»⁽³⁾.

(1) أخبرنا السيد أبو العباس الحسيني رحمه الله قال: أخبرنا محمد بن الحسين السويدي قال: حدثنا عمران بن موسى بن مجاشع قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله قال: حدثنا كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كبر على النجاشي خمس تكبيرات. (إعلام الأعلام بأدلة الأحكام ص 150 رقم 334).
وروى الإمام الهادي عليه السلام في الأحكام (142/1) عن أبيه، عن جده قوله: (وقد ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كبر على النجاشي خمسًا.. إلخ. و التكبير على الجنائز خمسًا هو مما أجمع عليه أهل البيت عليهم السلام كما حكاه الإمام الهادي عليه السلام في الأحكام (140/1).
وعند الطبراني في الكبير 20/17 رقم 24، وفي الأوسط 64/9 رقم 9133: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبر على النجاشي خمسًا.

وما روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبر أربعًا فيحتمل أن يكون المراد به غير تكبيرة الإحرام، وهو أولى ليكون جمعًا بين الأخبار أجمع.

وقد أخرج علي بن بلال في إعلام الأعلام ص 147-151، والطيالسي 93 رقم 674، وأحمد 76/7 رقم 19292، والدارقطني 73/2 رقم 6 ورقم 8 ورقم 9، والنسائي 72/4 رقم 1982، والطبراني في الكبير 168/5 رقم 4976 و 199/5 رقم 5081، وفي الأوسط 228/2 رقم 1823 - أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكبر خمسًا.

(2) أحمد في المسند 429/9 رقم 24918، وقال في مجمع الزوائد 224/9: إسناده حسن.

(3) ينظر مصنف عبد الرزاق 550/3 رقم 6666، وذخائر العقبى ص 218.

(18) المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطية النصرانية

لقد وقف النصارى بالإجمال من الدعوة الإسلامية منذ البدء موقف العطف والتأييد أحياناً، وظلوا كذلك إلى آخر العهد المكي ولم يقع بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة. لكن هذا لم يمنع الكثرة من النصارى العرب أن تلعب دورها في العصر المدني بمواجهة الإسلام وتتخذ المواقف العدائية ضده على شتى المستويات بدفع من الدولة البيزنطية الرومانية.

ففي العصر المدني تمكن الإسلام من بناء دولته التي تتجاوز في سياساتها وعلاقاتها الحدود الإقليمية والقومية صوب العالم المحيط حيث تقبع الدولة البيزنطية وحلفاؤها العرب في الشمال وهم جميعاً محسوبون على المعسكر النصراني.

وبمرور الوقت واتساع نفوذ الإسلام شمالاً ووصول أنباء انتصاراته على الوثنية واليهودية إلى قبائل الشمال - بدأ المعسكر البيزنطي وحلفاؤه يشعرون بالخوف والخطر ويقومون ببعض التصرفات المعادية للإسلام والمسلمين فبدأ مسلسل الصراع المسلح بين المسلمين والنصارى، وكانت أبرز المعارك على هذا الصعيد:

- معركة مؤتة.

- معركة تبوك.

معركة مؤتة

كان الدافع لهذه المعركة هو الانتقام لحادثة مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى ملك بُصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني -عامل هرقل- في مؤتة؛ فقد كان لهذه الحادثة وقع شديد على المسلمين وكان لا بُدَّ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتخذ موقفًا حاسماً إزاء المعتدي بعد هذا الموقف الغادر.

فجهز النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة وأمرهم بالانطلاق صوب الشمال لتأديب القوى المعادية على فعلتها، وإشعارها بقوة الدولة الإسلامية وقدرتها على ردع الغادرين والمعتدين الذين يجدون في الحماية البيزنطية سبباً يدفعهم إلى الجرأة والعدوان.

وتشير الشواهد الصحيحة إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم جعل القيادة لجعفر بن أبي طالب، ومن بعده لزيد بن حارثة، ومن بعدهما لعبد الله بن رواحة، وترك للجيش أن يختار لقيادته من يراه صالحاً إذا أصيب الثلاثة.

أعد هرقل بعدما سمع نبأ التحرك الإسلامي جيشاً كثيفاً قوامه مائة ألف مقاتل وعسكر في مآب من أرض البلقاء.

ولما وصل المسلمون إلى منطقة معان⁽¹⁾ جنوبي الأردن بلغتهم أخبار تلك الحشود.. فأقاموا ليلتين يتداولون الرأي بينهم وقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمددنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، وكاد هذا الرأي أن يتغلب لولا التربية الإيمانية والمعنوية التي كان لها دورها في صنع القرار وتحديد الموقف في اللحظات الحرجة حيث وقف عبد الله بن رواحة وقال بكل إيمان وقوة وشجاعة: يا قوم والله ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهور، وإما شهادة.

فكان لهذه الكلمات أثرها الطيب على تلك النفوس المؤمنة المجاهدة فصمموا على المضي والقتال مهما كانت النتائج.

غادر المسلمون معسكرهم في معان وانطلقوا شمالاً حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم وحلفاؤهم العرب في قرية تدعى مؤتة، وهناك دارت معركة طاحنة بين الطرفين، استشهد خلالها القادة الثلاثة على التوالي فقرر خالد بن الوليد الذي تولى قيادة الجيش الانسحاب والعودة إلى المدينة⁽²⁾.

غزوة تبوك

بعد عودة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة في أواخر السنة الثامنة في أعقاب دخول مكة وانتصاره في حنين بلغته أنباء عن تحركات عسكرية خطيرة يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب من لحم وجذام وغسان القيام بها ضد الإسلام والمسلمين وقد قامت هذه القبائل فعلاً بإرسال طلائعها إلى البلقاء فقرر صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصدى لهم.

وفي معظم الغزوات كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يحدد هدفه العسكري زيادة في الكتمان والسرية بل إنه كان يعتمد إلى التموية لتضليل الأعداء، أما في غزوة تبوك فقد بين صلى الله عليه وآله وسلم الهدف للناس لبعد الشقة وكثرة العدو، ليتأهب الناس لذلك أهبتة.

فأرسل إلى القبائل المسلمة في مختلف المناطق يعلمهم بما عزم عليه ويستنهضهم للجهاد معه، فأجابوا دعوته إلا المنافقين فإنهم راحوا يخلقون الأعذار الواهية حتى لا يخرجوا لقتال الروم وقد حكى القرآن عنهم ذلك فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81].

ثم تمادى المنافقون في موقفهم فلم يكتفوا بتخلفهم عن الجهاد بل راحوا يثبطون الناس عنه ويحرضون على التخلف والتخاذل، وقد اجتمعوا لهذه الغاية في بيت أحد اليهود، فعلم صلى الله عليه وآله وسلم بهم فحرق عليهم الدار وكانوا عبرة لغيرهم.

(1) مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، تقع الآن في جنوب الأردن. معجم البلدان 153/5.

(2) الطبقات 128/2، والواقدي 755/2، وابن هشام 15/4، والبداية 275/4، والطبري 36/3، والمواهب اللدنية 300/1، ومغلطاي ص 298، وعيون الأثر 208/2.

استكمل صلى الله عليه وآله وسلم تجهيز المسلمين، واستخلف علياً عليه السلام على المدينة فشق عليه التخلف، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»⁽¹⁾.

ثم ما لبث أن انطلق صلى الله عليه وآله وسلم في رجب من السنة التاسعة بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة إلى ذلك الحين، قيل إنه بلغ ثلاثين ألفاً تصحبه عشرة آلاف فرس.

بدأ المسلمون مسيرتهم التي قطعوا فيها آلاف الأميال، وعانوا آلام العطش والجوع والحر وقلة وسائل الركوب وبُعد الطريق، حتى انتهى بهم المطاف إلى تبوك في أقصى الشمال، ويبدو أن الروم وحلفاءهم سمعوا أنباء هذا الجيش الكبير وقدرته على اجتياز المصاعب وإصراره على جهاد الأعداء، وقدروا أنه لو انتصر في هذه المعركة فسوف لا يقف عند حد، وبالتالي قد تتعرض مواقعهم للخطر، فآثروا الانسحاب إلى الداخل عبر أراضي الأردن وفلسطين، وربما كانوا يهدفون من ذلك في الوقت نفسه جر المسلمين إلى الداخل والانقضاض عليهم هناك إلا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتح لهم تحقيق هدفهم هذا وقرر عدم التوغل إلى الداخل، وعسكر في تبوك جاعلاً إياها آخر نقطة في توغله شمالاً.

بقي صلى الله عليه وآله وسلم في تبوك حوالي عشرين يوماً يراقب تحركات الروم من دون أن يقاتل أحداً، وأخذ يتصل في الوقت نفسه بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة المتاخمة للحدود، وعقد مع بعضهم معاهدات صلح وتعاون، فقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطية وحوّلهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلامية، وهو الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم⁽²⁾.

(1) حديث المنزلة من الأحاديث المتواترة، وله عدة ألفاظ تؤدي نفس المعنى. انظرها في المجموع ص 268 رقم 149، والأحكام 25/1، ومناقب الكوفي 524/1 رقم 457، والأُمالي الصغرى ص 104، وتيسير المطالب ص 110 رقم 69، والبخاري رقم 4154، 3503، ومسلم 1870/4 رقم 2404، وابن ماجه 42/1 رقم 115، 121، والنسائي في الخصائص 60، والطبراني في الكبير 146/1 رقم 148، و 247/2 رقم 2035، و 20/4 رقم 220، والطبراني في الأوسط 2728، وأبو يعلى رقم 379، وابن حبان في صحيحه 369/15 رقم 6926 ورقم 6927، والحاكم في المستدرک 108/3 - 109، وعبدالرزاق رقم 20390، والحميدي في مسنده رقم 71، والترمذي 3730 - 3731، وأحمد بن حنبل 379/1 رقم 154، 307/10 رقم 27149، وابن ماجه 45/1، وأسَدُ الغابة 100/4، وابن كثير 11/5، وفتح الباري 91/8، والاستيعاب 201/3، والإصابة 502/2، ومجمع الزوائد 109/9، والجامع الكبير للسيوطي 26/16 رقم 7887، و 195/2 رقم 4799، والتاريخ الكبير للبخاري 115/1، وابن أبي شيبه 366/6 رقم 32072، ورقم 32075، وطبقات ابن سعد 23/3 - 25، والبدایة والنهاية 11/5، وكفاية الطالب 281، وشواهد التنزيل 150/1 رقم 204 - 205، والطبري 104/3، والمناقب لابن المغازلي 79 - 87 رقم 40 - 56، وتاريخ دمشق 306/1 - 393 في ترجمة الإمام علي، وعيون الأثر برقم 294، وتاريخ بغداد 204/4، والسيرة النبوية لابن كثير 12/4 - 13، والاكتفاء 273/2، والسيرة الحلبية 132/3، وحلية الأولياء 196/7.

(2) ابن هشام 159/4، والواقدي 990/3، والبدایة والنهاية 5/5، والاكتفاء 271/2، والطبقات 165/2.

نتائج تبوك وملاحم الانتصار

وبعد عشرين ليلة قضاها صلى الله عليه وآله وسلم وقواته في تبوك قفل عائداً إلى المدينة بعد أن حقق بحركته الصعبة تلك انتصاراً على الجبهة النصرانية البيزنطية، لا يقل أهمية عن انتصاراته الحاسمة على جبهات الوثنية واليهودية، وهذه أبرز ملامح الانتصار:

1- فقد كسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدداً من القبائل القاطنة في جنوب الشام على الحدود إلى جانب الدولة الإسلامية وقطع علاقاتها بالروم، وحصل منها على عهد بأن لا تتعاون مع أحد عليه ولا تتخذ من بلدانها مركزاً للعدوان على الحجاز، وبذلك ضمن صلى الله عليه وآله وسلم أمن المسلمين وحدود دولتهم.

2- الانتصار الأهم هو أن استجابة الرسول لتحدي الروم وتقدمه لقتالهم وانسحابهم من طريقه وانتظاره إياهم قرابة عشرين يوماً دون أن يحركوا ساكناً جاء ضربة قاسية للسيادة البيزنطية في بلاد الشام وإضعافاً لمركزها وهيمنتها على القبائل التي تعيش هناك، وكسراً لجدار الخوف من القوة البيزنطية وهو انتصار نفسي حاسم مكن أهالي البلاد بعد سنين قليلة من تجاوز ولائهم القديم والانطلاق لضرب البيزنطيين وإلحاق الهزائم بهم وطردهم إلى بلادهم التي جاءوا منها.

3- صعود سمعة المسلمين وهيبتهم داخل الحجاز وخارجها بحيث أن القبائل كانت تتأرجح بين تأييد الروم التي شعرت بمدى قوة الدولة الجديدة وامتداد نفوذها حتى إلى قلب الديار التي كان أهلها يعملون لصالح الروم، فبادرت هذه القبائل إلى حسم خيارها وأخذت تتهافت على الرسول في المدينة بعد رجوعه من تبوك خاضعة مذعنة معلنة إسلامها وتأييدها حتى سمي ذلك العام (التاسع) بعام الوفود.

4- إن غزوة تبوك تمثل خطوة من خطوات حركة المسلمين باتجاه الخارج وتخطياً لنطاق العرب وجزيرتهم إلى العالم، وببادرة متقدمة مهدت الطريق لحركة الفتوحات الإسلامية التي شهدتها العصور التالية لعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي غزوة تبوك أكثر من درس وعبرة نذكر هنا أبرزها:

1- ميزت غزوة تبوك مرة أخرى المنتمين إلى معسكر الإسلام فكشفت المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد لأعذار واهية ومحصتهم عن المؤمنين المجاهدين الذين سارعوا للانخراط في الجيش الإسلامي رغبة في الجهاد وعشقا للشهادة.

وقد ذكر المفسرون أن عدداً من آيات سورة التوبة⁽¹⁾ نزلت بمناسبة تبوك، مقارنة بين موقف المنافقين وموقف المؤمنين من الجهاد، وفاضحة المنافقين وأساليبهم محذرة من مكروهم ومؤامراتهم، مشددة على عدم التساهل معهم أو الاستعانة بهم أو قبول أعذارهم.

(1) راجع سورة التوبة الآيات: 81-82-83-86-87-88-89-94-95-96.

2- في الوقت الذي تخلف فيه البعض عن الجهاد في تبوك ملتجئين الأعذار الواهية كان البعض من الفقراء المجاهدين تفيض أعينهم من الدمع؛ لأنهم لم يتمكنوا من الخروج إلى الجهاد بسبب عدم امتلاكهم لمؤننته وإمكاناته. وقد ورد أن سبعة من فقراء المسلمين جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتوسلوا إليه أن يهيئ لهم ما يُمكنهم من الخروج معه شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله، فأجابهم: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا عنه وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً؛ حرمانهم من شرف المشاركة، وأنزل الله بهذه المناسبة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَذِمُنَّ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91، 92].

3- شارك المسلمون الأغنياء في تجهيز الجيش الإسلامي والإنفاق عليه، حتى أن الرجل كان يأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيهما بعض من يخرج بل ورد أيضاً أن النساء أسهمن بحلّيهن في تبوك وشاركن الرجال في النفقة، حيث اشتركن بكل ما قدرن عليه من مسك وأسورة ومعاضد وخلاخيل وقراط وخواتيم.

4- إن اختيار علي عليه السلام بالذات ليكون مكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة يدير شؤونها في غيابه كان إجراء ضرورياً يستهدف حماية المدينة وحفظ كيائها من المنافقين والأعراب الذين تخلفوا عن تبوك بأعداد كبيرة، وكان من المحتمل أن يستفيدوا من فرصة غياب النبي صلى الله عليه وآله وسلم للانقضاض على المدينة والعبث بأمنها، فكانت الدولة بحاجة إلى شخصية مرهوبة الجانب تملك كفاءة القيادة والولاية ولا تحسب لأحد حساباً مهما بلغ من القوة والمكانة وتقف سداً منيعاً في وجه كل من يحاول التآمر أو العبث بأمن الدولة وكيائها، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بأنه لا يصلح لمهمة كهذه غير علي عليه السلام ، وقد قال له صلى الله عليه وآله وسلم على ما جاء في مستدرك الصحيحين: «إِنَّ الْمَدِينَةَ لَا تَصْلَحُ إِلَّا بِأَوْ بِكَ»⁽¹⁾.

(1) أخرجه الحاكم 367/2 رقم 3294 وقال: صحيح الإسناد، والبخاري 59/3 رقم 817.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

سلوكه القيادي

كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عظيمًا في أخلاقه الشخصية والاجتماعية فقد كان عظيمًا في خلقه السياسي كرجل دولة.

وهذه بعض ملامح سلوكه القيادي وخلقته السياسي:

أ- العدل والتدبير: فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عادلاً حكيماً مدبراً، وقد روي أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يقسم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي، وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر.

واستطاع بحكمته وتدبيره الحد من العداوات والأحقاد والبغضاء والحروب التي كانت سائدة بين القبائل.

ب- حماية القوانين: فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً على حفظ النظام العام، ورعاية التشريعات الإسلامية وحمايتها وعدم مخالفتها، ولم يجرأ أحداً فيما يعني تطبيق الشريعة وإنزال العقوبة بالمذنب كائناً من كان.

ففي فتح مكة ارتكبت امرأة من بني مخزوم جريمة السرقة، وثبتت السرقة عليها من الوجهة القضائية لكن قومها الذين كانت الترسابات القبلية ما تزال تعشعش في أدمغتهم رأوا أن إنزال العقاب بها يחדش مكانتهم ويلحق العار بشرفهم؛ فبدلوا جهدهم وتوسطوا لعلهم يستطيعون رفع العقاب عنها فأرسلوا أسامة بن زيد الذي كان موضع احترام عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل أبيه وسيطاً يتشفع لها عند النبي فغضب صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: **«ما هذا محل شفاعاة»** وأصدر أمره صلى الله عليه وآله وسلم بإنزال العقوبة بها وإجراء حدود الله.

ولكي يزيل عن أذهان الناس فكرة المحاباة في تطبيق التشريع وإقامة حدود الله خطب في الناس ذلك اليوم مشيراً إلى هذه الحادثة وقال ما مضمونه: إن الأقيام والأمم السابقة قد بادت وانقرضت؛ لأنها لم تعدل في إجراء الحدود، فعندما كان أحد أفراد الطبقات العليا يرتكب جرماً كان يُعفى من العقاب، وإذا ارتكب أحد أفراد الطبقة الدنيا جريمة مماثلة عوقب عليها، ثم أقسم أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يتساهل في إجراء حدود الله حتى على أقرب المقربين إليه.

ولم يكن يرى نفسه صلى الله عليه وآله وسلم أنه فوق التشريع، بل إنه التزم وطبق بدقة ما ألزم به المجتمع وقد أعطى القوود من نفسه وعرض القصاص منها لمن كان له قبله مظلمة، مسجلاً بذلك نقطة ناصعة بيضاء لم يشهد التاريخ لها مثيلاً.

فقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعدل صفوف أصحابه يوم بدر ويبيده قِدْح (سهم) يعدل به القوم فمر بسواد بن غزيرة وهو متقدم من الصف فدفعه النبي في بطنه بالقدح، وقال: **«استو يا سواد»**.

فقال يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقديني فكشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بطنه، وقال: استقذ.

فاعتنته سواد فقبل بطنه.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ما حملك على هذا يا سواد؟

قال: حضر ما ترى (من الحرب) فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير.

ج- الالتزام بالعهود والمواثيق: فلم يحدث إطلاقاً أن أخل صلى الله عليه وآله وسلم بعهوده التي أبرمها مع أعدائه وقد أخلت قريش بعهداها معه، وأخل اليهود بعهودهم ومواثيقهم ولكنه لم يخل أبداً بعهده معهم.

د- الالتزام بمبدأ احترام الآخرين: وهو المبدأ الخلقي الذي اتبعه صلى الله عليه وآله وسلم مع زعماء الدول الذين لم يكونوا على دينه؛ ففي الرسائل التي بُعث بها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى زعماء العالم آنذاك تجدد أنه صلى الله عليه وآله وسلم رغم تصلبه وتشدده في ذات الله قد طبق مبدأ الاحترام مع هؤلاء عندما خاطب كسرى بـ(عظيم فارس) وقيصر بـ(عظيم الروم)؛ وذلك من أجل أن يكشف لهم بأن الإسلام هو الدين الذي جمع كل المبادئ السامية والقيم الأخلاقية.

هـ- بعد النظر: إن الدارس لسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يرى أن الله تعالى أعطاه من بُعد النظر ما لم يعط غيره، لقد رأينا بُعد نظره يوم وضعت قريش الشروط لصلح الحديبية؛ فقد رأى بعض أصحابه أن في هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين بينما رأى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -بما آتاه الله من بُعد النظر- النصر للمسلمين ورأى أن قريشا بوضعها هذه الشروط إنما تحفر قبرها بيدها وتكتب دمار أطروحتها بقلمها. ورأينا بُعد نظره في تألفه عبد الله بن أبي بن سلول -وكان ذا شوكة- يوم قينقاع ويوم بني النضير ويوم بني المصطلق وبقي رسول الله يتألفه حتى انكشف نفاقه، وظهرت عداوته للإسلام والمسلمين فجعل قومه بعد ذلك إذا أساء الإساءة هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؛ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، فقال عمر: قد - والله - علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمري⁽¹⁾.

...

(1) تهذيب سيرة ابن هشام ص 241.

(19) حركة النفاق في العصر المدني / 1

وجد الوثنيون في المدينة أنفسهم في وضع حرج بعد الانتصار الكبير الذي حققه المسلمون في بدر على القيادة الوثنية المتمثلة بقريش، فهم إما أن يبقوا على كفرهم فيعرضوا أنفسهم للعقاب، وإما أن ينتموا للدين الجديد وهم لم يألفوا الانضباط والانقياد لسلطة موحدة، ولا الالتزام بمبادئ وشعائر وأخلاقيات دائمة ثابتة كما يريد الإسلام. وسرعان ما وجد زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول - الذي كان قد رُشِّح لتتويجه ملكا على عرب المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - أن خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هو أن يعلن هو وأتباعه إسلامهم ظاهراً، ويبقوا على اعتقاداتهم وعلاقاتهم وممارساتهم الجاهلية باطناً، وبهذا ينجون من شبح العقاب ويحتفظون في الوقت نفسه بمعطيائهم الجاهلية، فضلاً عن أن تظاهروهم بالإسلام واندساسهم في صفوف المسلمين سيتيح لهم فرصة أوسع لتخريب المجتمع الجديد من الداخل والتنفيس عن حقدهم وهزيمتهم فاستجابوا لنداء زعيمهم الذي قال لهم في أعقاب سماع نبأ الانتصار الحاسم لجيش الإسلام في بدر: هذا أمر توجه فلا مطمع في إزالته. فانضووا إلى الإسلام. ومنذ ذلك الحين برزت إلى الوجود قوة جديدة في مواجهة الإسلام - وهذه المرة من داخل المجتمع الإسلامي - سببت له الكثير من المتاعب والحن، ووضعت في دربه الكثير من الحواجز والعقبات، ومارست إزائه من الداخل عمليات تخريبية لا حصر لها.

الأساليب العدائية للمنافقين

اتخذت أساليب المنافقين في مواجهة الإسلام أشكالاً شتى، بعضها مخطط مدروس، وبعضها عفوي مرتجل، وهي في كلتا الحالتين استهدفت وضع الحواجز والعراقيل في طريق الإسلام والتخريب من الداخل. ونستعرض هنا بعض أساليبهم ومظاهر عدائهم وتخريبهم وفق مجراها الزمني منذ ظهور هذه الكتلة في أعقاب بدر حتى وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فنقول:

أولاً: مد يد العون لليهود ومساندتهم فيما كانوا يحكيونه من مؤامرات على الإسلام: فقد كان المنافقون على صلة دائمة بهم، بل إن اليهود هم الذين أذكوا حركة النفاق في المدينة بعدما التقت أهدافهم مرحلياً معها؛ لأنهم جميعاً كانوا يرون أن انتصار الإسلام وانتشاره وازدياد نفوذه يضر بمصالحهم وبموقعهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي في المنطقة:

أ- فعندما حاصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بني قينقاع أول قبيلة يهودية كبيرة تنقض عهدها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحرك زعيم المنافقين بسرعة ووقف إلى جانب بني قينقاع مدافعاً عنهم إزاء هجوم المسلمين طالبا لهم العفو والمغفرة فنزلت آيات القرآن منددة بهذا الموقف المنافق المتأرجح بين ولاية الإسلام وولاية أعدائه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا

دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿51﴾ [المائدة: 51].
[52].

ب- وفي حصار بني النضير القبيلة اليهودية الثانية التي طردت من المدينة في أعقاب تأمرها على حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعاد ابن أبي وكبار المنافقين تمثيل نفس الدور الذي مثلوه مع بني قينقاع؛ إذ بعثوا إلى بني النضير وهم يعانون من حصار المسلمين وقبضتهم المحكمة أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم إن قاتلتهم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فنزلت آيات القرآن فاضحة منددة كاشفة موقفهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِنَ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [الحشر: 11، 12].

ثانيًا: ارتكاب الخيانة بالانسحاب من ميادين الجهاد في اللحظات الحرجة، وتثبيط الناس وتفريقهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشل إرادتهم عن الجهاد، وإظهار الشماتة في ساعات المحنة، وتشكيك المسلمين بصحة موقفهم وسلامة نهجهم، وهذا ما برز في الوقائع التالية:

أ- ففي يوم أحد انسحب ابن أبيّ بثلاث المقاتلين من منتصف الطريق؛ احتجاجا على عدم الأخذ برأيه القائل بقتال قريش في داخل المدينة حيث قال مبررًا موقفه: أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس.

ب- وهذا الأسلوب تكرر مرة أخرى في غزوة تبوك التي لا تقل خطورة عن معركة أحد؛ إذ انطلق ابن أبي في أعقاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رأس جماعة (المنافقين)، وما إن اجتاز المسلمون مسافة قصيرة نحو هدفهم حتى تخلف المنافقون وقفلوا عائدين إلى المدينة⁽¹⁾.

وإذا كان لهم عذر في ذلك أول مرة وقد أعلنوه لانسحابهم فإنهم قد افتقدوا الأعذار هذه المرة ولم يعلنوا شيئًا إلا أن الموقف في كلا الحالتين هو نفس الموقف: عدم إيمان بالهدف الذي يتحرك إليه المسلمون، وخوف من الموت في سبيل قضية لا يؤمنون بها، وتحذيل للمسلمين في اللحظات الحرجة لعلهم يجابهوا بهزة خطيرة تقضي عليهم وتعيد المنافقين إلى حياة الجاهلية القديمة، ويرجع لابن أبيّ حلمه القديم في أن يكون ملكا على قومه!!

ج- وبعدها تلقى المسلمون ضربة قاسية في بعض جولات معركة أحد وجد المنافقون ميدانا فسيحًا لإظهار أحقادهم وشكوكهم والكشف عن موقفهم الصريح من الأحداث فأظهروا الشماتة والسُرور بما أصاب المسلمين وأساءوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقول؛ فقد قال ابن أبي لابنه عبد الله الذي جرح في أحد: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأيي!! عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأنني كنت أنظر إلى هذا. فقال ابنه: الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير⁽²⁾.

(1) انظر: سيرة ابن هشام.

(2) انظر الواقدي. المغازي: ج1 ص317.

وجعل المنافقون يخذلون المسلمين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويأمروهم بالتفرق عنه، ويقولون لأصحابه: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل.

وقالوا أيضا: ما محمد إلا طالب ملك، وما أصيب بمثل هذا نبي قط، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه.

د- وفي معركة الخندق حيث أحاطت الأحزاب بالمدينة وعظم البلاء على المسلمين تصاعدت حملات المنافقين فأخذوا يثيرون شائعات الخوف والهزيمة ويسخرون من المؤمنين الذين كانوا يندفعون بجد إلى العمل والسهر المتواصل في حفر الخندق وفي غيره من أجل حماية الإسلام.

فقد قالوا: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدهم اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

وراح آخرون يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله إن بيوتنا عورة (مكشوفة) من العدو فأذن لنا أن نخرج إلى أهلنا ونرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يواجه حملاتهم النفسية هذه بروح الأمل ييثها في قلوب أصحابه ويحدثهم بيقين ثابت أن نصر الله قريب، وأن خيولهم ستطأ في السنين القادمة عواصم كسرى وقيصر وتسقط عروشهم واحداً بعد الآخر.

وقد تحدث القرآن عن أساليبهم في الخندق فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ حتى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 12-20].

ثالثاً: التخريب الداخلي وإثارة الفتنة بين فئات المسلمين، ونشر الشائعات الهدامة: ففي غزوة بني المصطلق حاولوا إثارة الحس القبلي بين المهاجرين والأنصار، وكادت أن تقع فتنة بين الطرفين لا يعلم إلا الله مداها لولا حكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد حدث - حينئذ - أن ازدحم على بئر هناك غلام من بني غفار لعمر بن الخطاب مع غلام جُهنِّي من يثرب فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ الغفاري: يا معشر المهاجرين، وكاد أن يقع القتال بين الفريقين إلا أن أحدهما ما لبث أن عفا عن الآخر واصطلح الرجلان بعد تدخل بعض المسلمين من المهاجرين والأنصار، فرأى زعيم المنافقين أن ينتهز فرصة هذه الحادثة فأظهر غضبه، وقال بعصية: أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عُذنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: (سَمِنَ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ) والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل.

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

رابعاً: قيامهم بأعمال يراد منها الإضرار بالمسلمين وتفريق صفوفهم ووحدتهم وتماسكهم. وذلك كبنائهم (مسجد الضرار) الذي تحدث عنه القرآن وأطلق عليه هذه التسمية، فكشف بذلك نياتهم وفضح خطتهم التي استهدفت إحداث تمزق وانشقاق في قلب المجتمع الإسلامي قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *
لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٧﴾ [التوبة: 107، 108].

سلوكه العسكري والأمني

يصف المحللون العسكريون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قائداً عسكرياً فذاً، وقد أدار المعارك العسكرية التي خاضها ضد المشركين واليهود وغيرهم من أعداء الإسلام بكفاءة وخبرة عالية، وهذه نماذج من سلوكه وتدابيره العسكرية والأمنية:

1- الاستطلاع العسكري: ويبدو أنه لم تخل معركة من معارك الإسلام الكبرى إلا واستخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها الاستطلاع العسكري وقام بجمع المعلومات عن العدو واستطلع تحركاته وأوضاعه المختلفة عن طريق العيون والطلائع وغيرهم.

فعندما خرج إلى بدر بعث بسبسة بن عمرو الجهني، وعدي بن أبي الزغباء الجهني يستطلعان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره.

وفي أحد أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحباب بن المنذر إلى القوم فدخل فيهم وقدر عددهم وحجم عتادهم ونظر إلى جميع ما يريد وبعثه سرا، وقال له: لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة، فرجع فأخبره خالياً.

وقام بهذه المهمة حذيفة بن اليمان يوم الخندق.

كما بعث عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي عينا على هوازن لجمع المعلومات عن موقفهم وخطتهم في حنين⁽¹⁾، وبريدة بن الحصيب عينا على بني المصطلق⁽²⁾، وعبد الله بن رواحة عينا على غطفان⁽³⁾ وغيرهم كثير.

2- الكتمان والسرية وأمن المعلومات: فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحيط تحركاته العسكرية بالسرية التامة، ويحرص على كتمان أهدافه والجهة التي يقصدها حتى عن المقربين؛ لئلا تتسرب المعلومات إلى العدو فيستفيد منها، وحرصاً منه صلى الله عليه وآله وسلم على تحقيق عنصر المباغتة ومفاجأة العدو، فعندما قرر

(1) ابن هشام 80/4، وطبقات ابن سعد 149/2، والواقدي 885/3، وسيرة ابن كثير 610/3.

(2) سيرة ابن هشام 302/3، وعيون الأثر 134/2، والواقدي 404/1، وابن سعد 62/2.

(3) بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير للتحري عن نقض كعب بن الخزرج للعهد واستجلاء الخبر، وقال لهم: إن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفقوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس! فخرجوا فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا: غُضِّلُ والقارة! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين. الواقدي 440/2، وابن سعد 65/2، وابن هشام 224/3، وسبل الهدى 512/4، وعيون الأثر 84/2، والطبري 574/2، وسيرة ابن كثير 202/3، والروض الأنف 279/3.

الذي صلى الله عليه وآله وسلم فتح مكة أخفى نياته ولم يطلع المسلمين على وجهته، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

ولم يكتف النبي صلى الله عليه وآله وسلم باتخاذ هذه الاحتياطات بل كان يراقب الطرق ويتخذ إجراءات أمنية مشددة كمنع السفر ونحوه كما في فتح مكة؛ لئلا تتسرب المعلومات عن تحركاته العسكرية عن طريق المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم من أعداء الإسلام.

3- الحرب النفسية: واستخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحرب النفسية ضد العدو بغية تحطيم معنوياته وشل إرادته وتفتيت وحدته الداخلية وبث الرعب والخوف واليأس في قلوب أعدائه.

فقد كان يأمر أصحابه بهجاء قريش، وقد كان يقوم بهذه المهمة حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وغيرهما، وكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم: اهجوا قريشًا فإنه أشد عليها من رشق بالنبل.

وفي عمرة القضاء قال لأصحابه: ارملوا بالبيت ثلاثًا؛ ليرى المشركون قوتكم، فلما رملوا قالت قريش: ما وهنتهم.

وعندما سار لفتح مكة ووصل إلى مشارفها أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه في النهار بجمع الخطب، ولما دخل الليل أمرهم بالتفرق وإشعال النيران في كل مكان؛ ليوهم العدو بأنه أمام حشد كبير لا طاقة له على مواجهته حتى أن أحد أصحابه يقول: لقد كنا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كل وجه حتى كان مما كبت الله تعالى عدونا.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يدخل مكة فاتحًا استعرض جيش المسلمين وأمر العباس بن عبدالمطلب أن يجلس أبا سفيان في المضيق الذي تزدحم فيه الخيل حتى ينظر إلى المسلمين وقوتهم، فحبسه العباس وجعلت القبائل المسلمة تمر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتيبة كتيبة على أبي سفيان في أكبر استعراض للقوة شهدته المنطقة آنذاك.

...

(20) حركة النفاق في العصر المدني / 2

موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حركة النفاق

من الثابت تاريخياً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يدخل في صراع مسلح ضد المنافقين كما فعل مع القوى الوثنية، واليهودية، والنصرانية، بالرغم من كل ممارساتهم التخريبية بل إنه صلى الله عليه وآله وسلم حتى لم يعزلهم عن المجتمع الإسلامي — باستثناء ما حدث في أعقاب غزوة تبوك — وإنما كانوا ينخرطون حتى في الجيش الإسلامي ويشاركون في العمل الجهادي ولم يتخذ تدبيراً يمنعهم به من الحضور في ساحة الجهاد في الوقت الذي كان يعلم أنهم إنما يفعلون ذلك: إما تمهيداً للخيانة للمسلمين وتسليمهم إلى أعدائهم، وإما طمعاً في المال والغنائم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا لم يدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم في صراع مسلح ويقضي على حركتهم كما فعل مع غيرهم من أعداء الإسلام؟ علماً أن خطرهم لا يقل عن خطر اليهود والمشركين، بل ربما يكون خطره أعظم إذا لاحظنا أنهم يعملون بالخفاء من الداخل؟

ولماذا يقبلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جيش المسلمين؟ مع أن ذلك يشكل خطراً عليهم، وإذا كان يمنع أفراد اليهود وغيرهم من الكفار من المشاركة فلماذا لا يتخذ تدبيراً معيناً يمنع به المنافقين من الحضور إلى ساحة الحرب مع المسلمين؟

والجواب يتلخص في النقاط التالية:

1- إن مشكلة المنافقين تكمن في أن هذه القوة المعادية غير واضحة الأبعاد مندسة في صفوف المسلمين، قديرة على الاستخفاء في أعقاب أي تخريب تمارسه، وقحة إلى حد إنكار الجرم المتلبسة به والتفلت مما يدينها مما جعل من أي عمل تخريبي تنسبه إليها لا يعدو كونه في الظاهر ولدى الرأي العام مجرد تهمة مشكوك فيها، فلم يكن بإمكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والحال هذه أن يعاقبهم أو حتى أن يعزلهم؛ لأنه سيفسر ذلك بأن النبي يعاقب على التهمة ويأخذ بالظنّة ويحصّد مئات الرؤوس لمجرد الشك في أنها تتآمر على سلامة الدولة.

2- إن المنافقين كانوا يتظاهرون بالإسلام ويشهدون خمس مرات في اليوم بشهادة الإسلام، وإنما يحاسب الناس بحسب أعمالهم الظاهرة، وهؤلاء منافقون وظاهرهم المكشوف ظاهر إسلامي، على خلاف باطنهم فكيف يعاقبهم؟ وقد عرف عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان لا يتعرض لمن يظهر الإسلام بسوء، ولذا نجده صلى الله عليه وآله وسلم يرفض مراراً وتكراراً عروضاً من بعض أصحابه بقتل رؤوس المنافقين وقطع رقابهم ليس إلا لأنهم يشهدون في الظاهر بشهادة الإسلام.

ففي تبوك حين أراد بضعة عشر منافقاً أن يمكروا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويطرحوه من عقبة في الطريق وعرض عليه بعض أصحابه أن يقطعوا رؤوسهم أجابهم صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه».

3- إن ممارسة القتل الجماعي أو الفردي تجاه أشخاص من أتباع النبي في الظاهر محسوبين على معسكره، سوف يعطي لأعدائه في الخارج سلاحًا دعائيًا ممتازًا لمهاجمة الإسلام، وذريعة لتخويف الناس من الدخول في الإسلام؛ بحجة أنهم لن يجدوا فيه الضمانات الكافية على حياتهم.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن الخطاب معترضاً على إلحاحه عليه بممارسة هذا الأسلوب تجاه المنافقين وذلك في غزوة بني المصطلق عندما حاولوا إثارة الفتنة بين المسلمين وفي غيرها من المناسبات: «**أتريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»⁽¹⁾.

وهذا حق، فهم على المستوى السياسي والقانوني من أتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما دام أي منهم لم يمارس عملاً (إجرامياً) محدداً فإن من الصعوبة بمكان قتله أو عزله.

4- ثم إن النفاق قد لا يتخذ صفة العنف بل يظهر المنافق الإسلام حفاظاً على مصالحه، أو لأسباب خاصة أخرى مع عدم إبائه عن الدخول فيه، وتقبله طبيعياً له، فهو لا يهتم بهدم الإسلام والكيد له، فتبرز الحاجة - والحالة هذه - إلى إعطائهم الفرصة للتعرف أكثر فأكثر على تعاليم الإسلام وأهدافه، ولكي يعيشوا أجواء من الداخل وليكتشفوا ما أمكنهم من أسرار عظمتهم وأصالته فتلين له قلوبهم، وتخضع له عقولهم، ولا أقل من أن أبناءهم ومن يرتبط بهم يصبح أقدر على ملامسة واقع المسلمين والتفاعل مع تعاليم الإسلام ما دام أنه يعيشها بنفسه، وتقع تحت سمعه وبصره.

وهذا بالذات ما كان يهدف إليه الإسلام من التألف على الإسلام، وإعطاء الأموال والإقطاع وحتى بعض المناصب والقيادات لمن عرفوا بـ (المؤلفة قلوبهم) بالإضافة إلى ما كان يهدف إليه من دفع كيدهم وشرهم.

وما تقدم يفسر لنا السبب الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يُقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم، يتألفهم بذلك، حتى إن عمرو بن العاص ظن بنفسه أنه خير القوم، ثم صار يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المفاضلة بين نفسه وغيره، فلما عرف أنهم أفضل منه قال: فلوددت أني لم أكن سأله.

5- إن سكوتة صلى الله عليه وآله وسلم عن المنافقين وقبولهم كأعضاء في المجتمع الإسلامي إنما يريد به المحافظة على من أسلم من أبنائهم وإخوانهم وأبائهم وأقاربهم حتى لا تنشأ المشاكل العائلية الحادة فيما بينهم، ولا يتعرض المسلمون منهم للعقد النفسية، والمشكلات الاجتماعية التي ربما تؤثر على صمودهم واستمرارهم.

6- وكذلك فإن اتخاذ أي إجراء ضد المنافقين لربما كان سبباً في تقليل إقبال الناس على الإسلام، وعدم وثوقهم بمصيرهم وما سوف يؤول إليه أمرهم معه فيه، ولا سيما إذا لم يستطيعوا أن يتفهموا سر ذلك الإجراء، ولا أن يطلعوا على أبعاده وخلفياته، ولسوف يأتي أن سبب إظهار وحشي للإسلام هو أنه كان معروفاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان لا يتعرض لمن يظهر الإسلام بشيء يسوؤه.

7- إن اتخاذ أي إجراء ضد المنافقين معناه فتح جبهة جديدة كان بالإمكان تجنبها واضطرار هؤلاء الساكنتين ظاهراً - انصياعاً لظروفهم - إلى المجاهرة بالعداء والإعلان بالتحدي، وهم عدو داخلي كثير العدد وخطير جداً يعرف

(1) انظر البداية والنهاية: ج 4 ص 158.

مواضع الضعف ومواضع القوة، ويكون بذلك قد أعطاهم المبرر للانضمام إلى الأعداء العاملين ضد الإسلام والمسلمين.

وواضح أن تصرفا كهذا ليس من الحكمة ولا من الحنكة في شيء؛ لأنه يأتي في ظرف يحتاج فيه الإسلام إلى تمزيق أعدائه وتفريقهم حيث لا يستطيع مواجهتهم جميعاً في آن واحد⁽¹⁾.

والخلاصة: إن مواجهة المنافقين بالعنف والقتل والصراع المسلح لم تكن في مصلحة الإسلام والمسلمين ولذلك فلم يلجأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا الأسلوب.

وكان بديل هذا الأسلوب شيئاً نادراً في تاريخ الدعوات؛ فقد تتبع النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة، ولم يحدد أسلوباً (ثابتاً) في مجابهة مواقفهم (المتلونة).

وإنما راح يضع لكل حالة إجراء أو خطة تتناسب تماماً وحجم المحاولة التخريبية، وتكتبها قبل أن تأتي بثمارها المرة، وقبل أن تزرع شوكتها في طريق الدعوة.

فنجده صلى الله عليه وآله وسلم أثناء التجهز لتبوك عندما علم باجتماع المنافقين في بيت أحد اليهود ليشبطوا الناس عن الخروج يتخذ إجراء فوراً بحرقهم فيأمر بحرق الدار عليهم.

وفي أعقاب تبوك في حادثة (مسجد الضرار) نجده أيضاً يتخذ إجراء عملياً ضد المنافقين فيأمر بهدم مسجد الضرار وإحراقه.

وفي أعقاب تبوك أيضاً يتخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم موقفاً بحق المنافقين المتخلفين عن الغزوة فيأمر بعزلهم اجتماعياً وعدم الصلاة عليهم وعدم إشراكهم في الجهاد بعدما نزل القرآن بذلك⁽²⁾.

وفي موقف آخر نجده صلى الله عليه وآله وسلم يفضحهم، ويكشف عن حقيقتهم، وينبه الصحابة إلى خطتهم ومؤامراتهم، ويحذر الناس منهم، ويذكر أفعالهم وأوصافهم.

وكان هذا بطبيعته يمثل حصانة ومناعة للمسلمين ضد النفاق والمنافقين ومكائدهم وإفشالاً لكل مخططاتهم ومؤامراتهم.

ومن وراء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت آيات القرآن الكريم تنزل من الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، محللة التكوين النفسي للمنافقين مشخصة نماذج منهم نكاد نلمسها بأيدينا وهي تتلى علينا فاضحة خططهم اللثيمة قبل أن تقع، منددة بأساليبهم، مظهرة أفعالهم، ناقلة أقوالهم، مبينة أوصافهم بدقة، صابة عليهم غضبها المخيف في أعقاب أية محاولة يستهدفون من ورائها فتنة أو خديعة أو مكر⁽³⁾.

(1) راجع في النقاط المتقدمة: الصحيح من سيرة صلى الله عليه وآله وسلم ج6 ص126-127.

(2) راجع سورة التوبة الآيات / 83-84-85.

(3) حول صفات المنافقين وأقوالهم راجع: سورة البقرة الآيات: 8، 16، 204-206. سورة النساء الآيات: 137، 138، 142، 143، 145، 146. سورة التوبة الآيات: 56، 57، 62، 61، 67، 68، 73، 77، 84، 85، 97، 98.

وهكذا مضت المراحل الأخيرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام يزداد قوة ومنعة وانتشاراً وزعماء القبائل العربية ينهالون على المدينة معلنين إسلامهم أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يجد المنافقون منفذاً يتسللون منه لتسديد ضربة مؤذية أو تنفيذ مخطط تخريبي جديد، لاسيما وأن زعيمهم عبد الله بن أبي كان قد توفي في أواخر السنة التاسعة وكانت الآيات القرآنية في سورة التوبة قد نزلت أخيراً تندد بما فعل ويفعل أولئك المنافقون وتمزق بشكل نهائي الأستار التي يتوارون خلفها، وكانت ألعابهم قبل تبوك وبعدها هي النهاية الحاسمة للسماحة التي أبداهها الرسول معهم طويلاً ولم يقدرها حق قدرها حيث أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك أن يعلن على الناس ذبذبتهم وكيدهم وكُلف ألا يقبل منهم ولا يصلي عليهم، بل اعلم أن استغفاره لهم لن يجاب، ثم طُوبى المسلمون كافة أن يقاطعوهم.

إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما إن توفي حتى وجد المنافقون فرصتهم السانحة هذه المرة لحرف خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مسارها الحقيقي الذي كان قد أعد له صلى الله عليه وآله وسلم في حياته، وتغيير مجرى التاريخ الإسلامي إلى غير وجهته، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

101. سورة محمد الآيتان: 29، 30. سورة الحديد الآيتان: 13، 14. سورة المنافقين الآيتان: 1، 8. (وحول مواقفهم الكيدية والساخرة راجع سورة النساء الآيات: 60، 61، 138، 139، 140، 141. سورة التوبة الآيات: 58، 61، 64، 65، 69، 79، 80، 107، 110، 124، 127. سورة المجادلة الآيات: 8، 10، 14، 6. سورة البقرة الآيتان: 11، 14. سورة الأنفال الآية: 49. سورة النور الآيتان: 62، 63. سورة الأحزاب الآيات: 57، 61، 69، 71. سورة محمد الآيات: 16، 25، 26. سورة المائدة الآيتان: 50، 53. وحول مواقفهم من الجهاد ووقائعه راجع سورة آل عمران الآيات: 156، 166، 168. سورة النساء الآيات: 71، 73، 77، 81. سورة التوبة الآيات: 42، 49، 50، 53، 81، 83، 86، 87، 90، 93، 96.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم في أسرته-1

علاقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنسائه:

كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً أعلى في شتى ألوان تعامله وأنماط سلوكه، كان كذلك في علاقاته بأزواجه كي يكون قدوة لأئمة في كل شأن من شؤونها في الحياة كما يشاء الله تعالى: وهذه بعض أساليب تعامله مع أزواجه:

1- التزام العدل الكامل في معاملتهن في: النفقة والمسكن والملبس والمبيت والزيارات والوقت فبالرغم من أنه صلى الله عليه وآله وسلم كانت في أزواجه الشابة والجميلة والمسنة والعادية في جمالها، لكن ذلك لا يصرفه بحال عن التزام أعلى درجات الكمال في العدل بينهما فلا تفضيل لواحدة على أخرى.

لقد خصص لكل واحدة منهن ليلة، وكان إذا زار إحداهن زار الجميع بعد ذلك، وإن عزم على سفر من أجل جهاد أو حج أقرع بين نسائه فيصحب من تفوز بقرعته حتى لا يؤذي قلوبهن إن اختار واحدة اختياراً من عنده.

2- مداراته لأزواجه ورعايتهن بالرفق والحب: فمن مظاهر ذلك مسامحتهن في الليل والتداول معهن في بعض الشؤون وعدم إيذاء واحدة منهن أبداً.

فبالرغم من كثرة مضايقات بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم له فإن ذلك لم يصرفه عن التزام الرفق والشفقة والعدل في معاملتهن حتى إنه لم يضرب واحدة منهن طوال حياته، وإن كان يوبخهن أحياناً أو يبدو منه الغضب لمواقفهن غير المرضية، وإلى هذا أشارت عائشة بقولها: ما ضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم امرأة قط ولا ضرب خادماً⁽¹⁾.

ومن أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم في إطار بيته أنه لا يأنف أبداً من مساعدة زوجاته سواء فيما يتعلق بالشؤون الخاصة به أو ما يتعلق بهن.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي»، «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»⁽²⁾.

(1) الأصبهاني: أخلاق النبي: ص 35 .

(2) العاملي، الوسائل: ج 7 ص 122.

3- ومن حسن سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مع أزواجه: أنه كان يتجمل لنسائه ويهتم بملاطفتهن ويرضي عواطفهن.

فقد روي: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطلب الطيب في جميع رباع (حجرات) نسائه⁽¹⁾.
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي الوصية تلو الوصية بالمرأة، ويرشد إلى طريقة مثلى للتعامل معها. فعن علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب يوم النحر بمنى من حجة الوداع فقال: «استوصوا بالنساء خيراً» إلى أن قال: «ولهن عليكم من الحق نفقتهن وكسوتهن بالمعروف»⁽²⁾.
ومن نافلة القول أن نذكر هنا أن من سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مع أزواجه أنه كان يحرص على تهذيب أخلاقهن بالخلق الإسلامي الكريم، ويعمل على توجيههن الوجهة السليمة.

...

(1) الأصبهاني أخلاق النبي / ص 104.

(2) شفاء الأوام ج 2 ص 327 المكتبة الشاملة.

(21) حجة الوداع

عندما حان موعد الحج من العام العاشر للهجرة أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيحج بنفسه في الناس هذا الموسم، فاجتمع إليه الناس من كل مكان، ثم ما لبث أن غادر المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة مصطحباً معه نساءه وابنته فاطمة الزهراء عليها السلام.

وبدأت مراسيم الحج فانطلق آلاف المسلمين يؤدون مناسكهم كما بينها لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأى صلى الله عليه وآله وسلم أن يستفيد من هذا التجمع الكبير فألقى خطاباً شاملاً في عرفة أكد فيه القيم والتعاليم التي بُعث من أجلها.

بيعة غدير خم

لما أتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجه خرج من مكة متجهاً إلى المدينة ومعه تلك الوفود التي لم تشهد لها مكة نظيراً في تاريخها آنذاك، وذلك في السنة العاشرة من الهجرة النبوية. ولما انتهى إلى مكان قريب من الجحفة يقال له (غدير خم) وقبل أن يتفرق الناس كل إلى ناحيته نزل في ذلك المكان في الصحراء، وكان يوماً قائظاً شديد الحرارة بعد أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67] فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بدوحات فُحِّمَ ما تحتهن من الشوك، وجمعت له أقتاب الإبل ووقف عليها حتى يراه الناس ويسمعوه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «كأني دُعيتُ فأجبتُ إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تحلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»، ثم قال: «أيها الناس ! إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، ثم أخذ بيد علي عليه السلام - وهو بجواره على تلك الأقتاب - وقال: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». وأضاف الراوي، قال: قلت لزيد بن أرقم: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقال: ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنيه⁽¹⁾.

(1) حديث الغدير روي بالفاظ كثيرة وهو متواتر، وقد ذكره السيوطي في الأحاديث المتواترة 100/37. وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء 415/5: الحديث ثابت بلا ريب، وقال في 334/8: متنه متواتر. وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ 713/2 في ترجمة محمد بن جرير الطبري: ولما بلغ ابن جرير أن ابن أبي داود تكلم في حديث غدير خم عمل كتاب الفضائل، وتكلم على تصحيح الحديث، قال الذهبي: رأيتُ مجلداً من طرق الحديث لابن جرير فاندعشت له ولكثرة تلك الطرق. قال السيد الهادي بن إبراهيم الوزير في نهاية التنويه ص 92: هذا الخبر قد بلغ حد التواتر، وليس لخبر من الأخبار ما له من كثرة الطرق، وطرقه مائة وخمس طرق، وفي هذا زيادة على الحد المعتبر في التواتر. قال محمد بن جرير الطبري: خبر الغدير طرقه من خمس وسبعين طريقاً، وله كتاب سماه الولاية، وقال ابن عقدة: خبر الغدير له مائة وخمس طرق وقد أفرد له كتاباً أيضاً. قال المقبلي في الأبحاث

وجاء في رواية: أن عمر بن الخطاب لقي عليا عليه السلام بعد أن فرغ صلى الله عليه وآله وسلم من خطابه وقال له: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب لقد أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة⁽¹⁾.

وبعد أن أخذ صلى الله عليه وآله وسلم بيد علي عليه السلام وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» أنزل الله على نبيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وروي أن عمر بن الخطاب قال له يوم ذاك: بَخٍ لَكَ يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. وجاءه حسان بن ثابت يستأذنه أن يصف موقفه من علي في ذلك اليوم فأذن له فوقف على مرتفع من الأرض وتناول المسلمون لسماع كلامه فأنشأ يقول:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بحم وأسمع بالنبي مناديا
وقال فمن مولاكم ووليكم فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذي عادى علياً معاديا

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك⁽²⁾. وهكذا مارس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما من شأنه أن يحفظ الرسالة ومستقبل الإسلام.

جيش أسامة

المسودة ص 244 بعد ذكر روايته: وهو متواتر، فإن كان مثل هذا معلوماً، وإلا فما في الدنيا معلوم! قال ابن حجر في فتح الباري 74/7: وهو كثير الطرق جُداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدھا صحاح وحسان. فأخرجه أحمد بن حنبل 182 رقم 6410، وقد تكرر، والترمذي 591/5 رقم 3713، والنسائي في الخصائص ص 89-91 رقم 85-82، والحاكم 533/3، 109، والطبراني في الكبير 179/3 رقم 3049، والأوسط 275/2 رقم 1966، والحاكم 371/3، وكتاب السنة لابن أبي عاصم ص 607 رقم 1360-1368، ومختصر الزوائد 302/2 رقم 1901، 1602، وابن أبي شيبة 368/6، ومسند البزار 10/ 211 رقم 4298 و 4299.

⁽¹⁾ فضائل الصحابة 738/2 رقم 1016، و755/2 رقم 1042، وأحمد 401/6 رقم 18506، وذخائر العقبى 67.

⁽²⁾ روي في كنز العمال برقم 36956: بلفظ: «وأنت يا حسان لم تزل مؤيداً بروح القدس ما نافحت، وفي لفظ: ما كافحت عن رسول الله»، وهو في تاريخ ابن عساكر 392/12.

لم يطل بالمسلمين المقام بعد رجوعهم من حجة الوداع حتى أمر صلى الله عليه وآله وسلم بتجهيز جيش لعله من أكبر الجيوش التي عرفتها المدينة من قبل؛ بدليل أنه حشد في ذلك الجيش وجوه المهاجرين كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم من المهاجرين والأنصار كما تنص على ذلك المؤلفات في السيرة والتاريخ، وأمر على ذلك الجيش أسامة بن زيد بن حارثة وهو يوم ذاك في مطلع شبابه، لا يتجاوز العشرين من عمره، مما دعا إلى دهشة كبار الصحابة واستيائهم من تأميره عليهم، وتناقضوا في تنفيذ أوامره بالرغم من تأكيدات المتتالية على تسريح الجيش بقيادته. واضطر صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرج إلى الناس ويحثهم على الخروج والجهاد بقيادة أسامة، وبدأ عليه الانزعاج والتصلب حينما طالبوه بأن يولي عليهم غيره، وقال لهم: **«لعمري لئن قلتم في إمارته اليوم فلقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه خلّيق بالإمارة كما كان أبوه خليقا بها من قبل»**⁽¹⁾.

وكان من جملة الدوافع التي دعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى التصميم على إرسال هذا الجيش أن الدولة الرومانية جعلت تطارد وتقتل كل من دخل في الإسلام من رعاياها، ومن بين الذين قتلهم بسبب اعتناقهم الإسلام فروة بن عمرو الجذامي، وكان واليا على معان وما حولها من أرض الشام.

ومهما تكن الأسباب الداعية لتجهيز ذلك الجيش؛ فقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم أسامة أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قُتل والده وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح ويمعن فيهم قتلا وتشريداً، وأن يتم ذلك بأقصى سرعة قبل أن تصل أخباره إليهم.

وخرج أسامة بالجيش إلى الجرف على مقربة من المدينة وعسكر فيه ريثما يتم تجهيزه، وخلال ذلك بدأ صلى الله عليه وآله وسلم يحس بدنو أجله وبدأ المرض يشتد عليه، فبدأت محاولات لعدم تحرك الجيش من مكانه وبخاصة بعد أن أحسوا أن مرض النبي يزداد من وقت لآخر ويشكل خطراً على حياته.

وقال المؤرخون: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استبطأ الناس في بعث أسامة وأخذ الوجع يشتد به فخرج عاصباً رأسه وجعل يحثهم على الخروج ثم قال: **«أيها الناس إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»**.

أيها الناس لا ألفتينكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فتلقوني في كتيبة كمجر السيل الجرار، ألا وإن علي بن أبي طالب أخي ووصيي يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»⁽²⁾

(1) البخاري رقم 4199، وفتح الباري 152/8، وابن سعد 248/2، والطبري 186/3.

(2) الحديث بلفظه في الإرشاد للشيخ المفيد 96. وأخرج الحاكم 122/3 عن أبي سعيد، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانقطعت نعله، فتخلف علي يخصفها، فمشى قليلاً، ثم قال: إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ، فاستشرف لها القوم، وفيهم أبو بكر وعمر، قال أبو بكر: أنا، قال: لا، قال عمر: أنا هو، قال: لا، ولكن خاصف النعل، فأتيناه فبشرناه إلى آخر الحديث. قال الحاكم، ووافقه الذهبي: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وينظر خصائص النسائي 134 برقم 152، وحلية الأولياء 108/1 برقم 209، وابن حبان 385/15 برقم 6937، وتاريخ دمشق

ومضى يحث الناس على الخروج بقوله: «أنفذوا جيش أسامة؛ لا يتخلف عن بعثه إلا عاص لله ولرسوله...»
الخبر بطوله⁽¹⁾.

والسؤال الذي يطرح هنا: هو أن النبي ما دام يعلم بدنو أجله وبوفاته بعد أيام قليلة؛ فلماذا أصّر حتى النفس الأخير على تسريح جيش أسامة وانضمام كبار الصحابة إلى هذا الجيش وترك علي عليه السلام في المدينة؟
والجواب: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد بذلك أن يهيئ الظروف المناسبة لتسلم علي عليه السلام للخلافة من بعده وإبعاد كل العناصر المناوئة عند وفاته صلى الله عليه وآله وسلم عن المدينة؛ لئلا يطمعوا في الخلافة ويحولوا دون تنفيذ وصيته في استخلاف علي عليه السلام؛ ولذلك لم يجعل أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك الجيش وجعل فيه أبا بكر وعمر وغيرهما؛ لئتم له الأمر بدون منازع⁽²⁾.

الوصية الأخيرة

اشتد المرض بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فمكث ثلاثة أيام موعوكًا، ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس معتمدا على أمير المؤمنين عليه السلام وعلى الفضل بن العباس حتى صعد المنبر فجلس عليه ثم قال: «معاشر الناس قد حان مني حقوق من بين أظهركم فمن كان له عندي عِدَّة فليأتني أعطه إياها، ومن كان له علي دين فليخبرني به، معاشر الناس ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيرا أو يصرف به عنه شرا إلا العمل.
أيها الناس لا يدعي مدع ولا يتمنى متمن والذي بعثني بالحق لا ينبغي إلا عمل مع رحمة ولو عصيت لهويت، اللهم هل بلغت».

ثم نزل فصلى بالناس صلاة خفيفة ودخل بيته.

وجاء بلال والمرض قد اشتد به عند طلوع الفجر فنادى للصلاة فقام صلى الله عليه وآله وسلم وهو لا يستقل على الأرض من الضعف؛ فأخذ بيد علي عليه السلام والفضل بن العباس فاعتمد عليهما ورجلاه تخطان الأرض من الضعف فلما دخل المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب فأومأ إليه أن تأخر عنه، فتأخر وقام صلى الله عليه وآله وسلم مقامه وابتدأ الصلاة.

فلما انتهى انصرف إلى منزله واستدعى أبا بكر وعمر وجماعة ممن حضر المسجد من المسلمين ثم قال: «ألم أمر أن تنفذوا جيش أسامة؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «فلم تأخرتم عن أمري؟» فقال أبو بكر: إني كنت خرجت ثم عدت لأجدد بك عهدًا.

451/42-455، ومسند أحمد 67/4 برقم 11288، 163 برقم 11773، وابن أبي شيبة 367/6 برقم 32082،

ومسند أبي يعلى 341/2 رقم 1086، وسنن النسائي الكبرى 154/5 رقم 8541، والغدير للأميني 366/5..

(1) لوامع الأنوار 2/ 610، والمصاييح في السيرة ص 248.

(2) عيون الأثر 2/ 369، وابن هشام 4/ 291، 299، وتاريخ الإسلام (المغازي) ص 713، وأسد الغابة 1/ 194، والاستيعاب

170/1.

وقال عمر: يا رسول الله لم أخرج لأنني لم أحب أن أسأل عنك الركب؛ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«أنفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة»** وكرر ذلك ثلاثاً ثم أغمي عليه من التعب ومما لحقه من الأذى لتجاهلهم أوامره.

ومكث فترة من الزمن مغمى عليه؛ فبكى المسلمون وارتفع الحبيب من أزواجه وابنته صلى الله عليه وآله وسلم ونساء المؤمنين وجميع من حضر.

ولما أفاق نظر إليهم وقال: **«أتتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً»** ثم أغمي عليه، فقام بعض من حضر يلتمس دواة وكتفا؛ فقال له عمر: ارجع فإنه يَهْجُرُ، فرجع، فلما أفاق قال بعضهم: ألا نأتيك بكتف يا رسول الله ودواة؟ قال: **«أبعد الذي قلت!! لا، ولكني أوصيكم بأهل بيتي خيراً»** وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا⁽¹⁾.

وواضح أن الكتاب الذي أراد أن يكتبه لا يعدو أن يكون تأكيداً لما صرح ولوح به مراراً من قبل بخصوص استخلاف علي عليه السلام والوصية بأهل بيته.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بأنه لا قيمة لكتابه عند هؤلاء بعد الذي قالوا بل لو كتب لهم عشرين كتاباً سوف يَحْجَرُونَ ويؤولون مضامينها بما يتفق مع مصالحهم، وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك، وهذا هو الذي دعاه صلى الله عليه وآله وسلم إلى عدم الكتابة حينما أفاق.

وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

اشتدت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في اليوم التالي وحُجِبَ الناس عنه وكان علي عليه السلام لا يفارقه إلا لضرورة؛ فلما حضره الموت كان من جملة ما قاله له: **«.. وجهني إلى القبلة وتول أمري، وصل علي أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي واستعن بالله تعالى، فأخذ علي عليه السلام رأسه ووضع في حجره ففاضت نفسه الشريفة وهو إلى صدره عليه السلام»**⁽²⁾. وكانت وفاته صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين؛ لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول؛ فاشتكى ثلاثة عشر يوماً بدئ الوجع فيه فَصُدَّعَ وَحُمَ يوم الأربعاء. وقيل: إنه

(1) البخاري 4169، وفتح الباري 132/8 رقم 4432، والطبراني في الكبير 1226/11، ومسند ابن حنبل 437/4، وكنز العمال 554/11.

(2) الرواية بلفظها في الأنوار البهية، للشيخ عباس القمي ص 32، وبمعناها في طبقات ابن سعد 263/2، ومصنف ابن أبي شيبة 365/6 رقم 29066.

توفي لليلتين بقيتا من صفر سنة 11 للهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ولم يحضر دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر الناس؛ لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة⁽¹⁾.

(1) طبقات ابن سعد 2/ 272، والبداية والنهاية 5/ 257، وتأريخ خليفة 96، وسيرة ابن كثير 4/ 507، والطبري 3/ 217، ابن هشام 4/ 302، ومروج الذهب 2/ 219، وتأريخ الخميس 166.

للمطالعة: وإنك لعلی خلق عظیم

أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم في أسرته-2

الأب المثالي:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعامل أولاده (فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام) بكل عطف ومحبة ورفق ولين، وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى الحسن والحسين يمشيان فحملهما، ثم التفت إلى أصحابه، وقال: «أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض»⁽¹⁾ وكان يسعى في تربيتهم وتعليمهم آداب الإسلام. فقد روي أن فاطمة عليها السلام كانت إذا جاء إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقيته وقبل كل واحد منهم صاحبه وجلسا معا.

وكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «فاطمة مني، يربيني ما يريها، ويؤذيني ما يؤذيها»⁽²⁾. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليغضب لغضبك يا فاطمة»⁽³⁾.

وكان الحسن والحسين عليها السلام وهما صغيران يعلوان ظهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ساجد يصلي فكان يطيل سجوده حتى ينزلا عن ظهره أو ينزلهما برفق.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره! فإذا أرادوا منعهما أشار إليهم: دَعُوهُمَا؛ فَلَمَّا انصرف من صلاته وضعهما في حجره، وقال: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبِّ هَذَيْنِ»⁽⁴⁾.

وعن بريدة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب على المنبر فجاء الحسن والحسين «عليهما السلام» وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فحملهما

(1) تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبين ص 148.

(2) البخاري 2004/4 رقم 4932، والترمذي 655/5 رقم 3867، وفي أسد الغابة 219/2، عن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة: «إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِعُضْبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكِ».

(3) أسد الغابة 219/7، والإصابة 366/4، و الحاكم 154/3 وصححه، وصحيفة الرضى 459، وكفاية الطالب 364.

(4) أخرجه الطبراني في الكبير 47/3 رقم 2644، والبيهقي 2/263، وابن خزيمة 48/2 رقم 887، ومجمع الزوائد 9/179، وقال: رجاله ثقات، والبخاري 339/2 رقم 1978، والطبراني في الأوسط 5/102 رقم 4895.

ووضعهما بين يديه ثم قال: «صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْسِيَانِ وَيَعْتَرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»⁽¹⁾.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطف حتى على أطفال الآخرين ويعاملهم بمنتهى الرفق واللين، ويمنحهم شخصية قوية ويحتضنهم ويمسح على رؤوسهم ولا يحقر أحدا منهم.

فقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يؤتى إليه بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة أو يسميه فيأخذه فيضعه في حجره إكراما لأهله فرمما بال الصبي عليه فيصيح بعض من يراه حين يبول فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا ترموا بالصبي**» فيدعه حتى يقضي بوله، ولا يظهر انزعاجه أمام أهله من بول صبيهم فإذا انصرفوا غسل ثوبه.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قدم من سفر تلقاه الصبيان فيقف لهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم فرمما يتفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه وحملك أنت وراءه، ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم.

ومما يبين مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأطفال ومنحهم الشخصية الكاملة واحترامهم ما رواه الإمام الصادق عليه السلام قال: عطس غلام لم يبلغ الحلم عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: الحمد لله. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**بارك الله فيك**».

قال الإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام في الأحكام: وفي ذلك ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أنه أتى بشارب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره مشايخ فقال للغلام: «**أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ**»؟ فقال الغلام: لا والله يا رسول الله ما أؤثر بنصبي منك أحدا، فقبله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يده).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلوات الله وسلامه على رسوله الأمين، وعلى آله الطاهرين.

...

(1) الأُمالي الاثنينية 1/ 541 و الترمذي 616/5 رقم 3774، والنسائي 108/3 رقم 1413، وابن ماجه 1190/2 رقم 3600، ومسند أحمد 19/9 رقم 23056، وأبو داود 663/1 رقم 1109، وفضائل الصحابة 966/2 رقم 1358، وذخائر العقبى ص 130، 131، وأسَدُ الغَابَةِ 16/2.

المصادر والمراجع

1. الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان البستي - تحقيق: شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - ط2 (1414هـ - 1993م).
2. أحكام الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين - تحقيق د. المرتضى بن زيد المخطوري الحسني رحمه الله تعالى - مكتبة بدر للطباعة والنشر - صنعاء - ط2 - 1435هـ - 2014م.
3. أخلاق النبي وآدابه - عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني - تحقيق: صالح بن محمد الونيان - دار المسلم للنشر والتوزيع - 1998م.
4. أسباب النزول: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري - دار ابن كثير - دمشق - بيروت - ط (1408هـ - 1988م).
5. الاستيعاب: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط (1415هـ - 1995م).
6. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق الشيخ علي محمد معوض + الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - دار الكتب العلمية - بيروت - (1994م).
7. الإشارة إلى سيرة المصطفى - مغلاطي بن قليج - دار القلم دمشق دار الشامية بيروت - الطبعة الأولى.
8. الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني - دار الكتاب العربي - بيروت 1359هـ.
9. الاعتصام بحبل الله المتين - الإمام القاسم بن محمد - مطابع الجمعية الملكية.
10. إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحي الدين الدرويش - اليمامة - دار ابن كثير - دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سوريا 1408هـ - 1988م.
11. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي - عالم الكتب - ط 1.
12. الأمالي الإثنيية، للإمام المرشد بالله يحيى بن الإمام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل الجرجاني - مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية - اليمن - الطبعة الأولى 1429هـ - 2008م.
13. الأمالي الخميسية: للإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل الشجري - عالم الكتب ط3 (1403هـ - 1983م).
14. أنساب الأشراف، للبلاذري، تحقيق: محمود العظم - دار الیقظة العربية.
15. أنوار اليقين للإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين عليه السلام . المكتبة الشاملة.
16. البحر الزخار - الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى - دار الحكمة اليمانية - ط 1.
17. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير - دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1383هـ - 1964م.

18. بهجة المحافل، وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، تأليف: يحيى بن أبي بكر العامري-مطبعة الجمالية- مصر - الطبعة الأولى 1330هـ.
19. تاج العروس- محمد مرتضى الزبيدي- دار الفكر-1994م-1414هـ.
20. تاريخ ابن الوردي، لزين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1417هـ - 1996م.
21. تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، تأليف الملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن علي بن محمد- دار الكتب العلمية- ط1(1417هـ-1997م).
22. تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، تأليف: الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: 748هـ)، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري- دار الكتاب العربي- بيروت- ط2(1418هـ-1998م).
23. تاريخ الخلفاء - الحافظ السيوطي - دار الفكر- بيروت.
24. تاريخ الطبري، تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم- دار التراث بيروت - ط3 (1387هـ - 1967م).
25. التاريخ الكبير - البخاري - دار الكتب العلمية - بيروت.
26. تاريخ يعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي، تحقيق: عبد الأمير مهنا- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- ط1(1413هـ-1993م).
27. تاريخ بغداد: للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي- دار الفكر.
28. تاريخ دمشق: لابن عساكر - دار الفكر - ط1(1415هـ - 1995م).
29. تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان 1411هـ-1990م.
30. تفسير الخازن ومعه تفسير البغوي - دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان - ط1-1415هـ-1995م.
31. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار- دار المعرفة- بيروت- لبنان.
32. تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبين- المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي- تحقيق: إبراهيم الدرسي- منشورات أهل البيت للدراسات الإسلامية- اليمن، صعدة- 1421هـ- 2000م.
33. التنبيه والإشراف - المسعودي - دار ومكتبة الهلال.
34. تهذيب الكمال في أسماء الرجال: الحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط1(1408هـ - 1988م).
35. تيسير الطالب في أمالي أبي طالب-الإمام أبو طالب-مؤسسة الأعلمي، بيروت+ طبعة مؤسسة الإمام زيد.
36. جامع البيان (تفسير الطبري): محمد بن جرير الطبري - دار الفكر - 1415هـ - 1995م. تحقيق: صدقي العطار.

37. الجامع الصحيح: أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي- دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى 1408هـ - 1987م. تحقيق: كمال الحوت.
38. حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي- دار صادر- بيروت.
39. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني- دار بيضون- الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م. تحقيق: مصطفى عطاء.
40. خصائص أمير المؤمنين علي: النسائي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط1 (1407هـ - 1987م).
41. الدر المنثور في التفسير المأثور: للسيوطي - دار الكتب العلمية - ط1 (1411هـ - 1990م).
42. دلائل النبوة، لأحمد بن الحسين البيهقي - دار الريان للتراث - ط1 (1408هـ - 1988م).
43. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، العلامة محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري- دار المعرفة- بيروت- لبنان- بدون تاريخ.
44. رآب الصدع تخريج أمالي أحمد بن عيسى، حققه وخرج أحاديثه وشرحها: علي بن إسماعيل المؤيد- دار النفائس الطبعة الأولى. وإذا أشرنا إلى الأمالي فالمراد به هو أمالي أحمد بن عيسى.
45. الروض الأنف- السهيلي- دار الفكر.
46. الروضة الندية، تأليف محمد بن إسماعيل الأمير الصنعائي- مركز بدر- الطبعة الأولى.
47. الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة، تأليف: يحيى بن أبي بكر العامري اليمني- مكتبة المعارف - بيروت الطبعة الثالثة 1983م.
48. سبل الهدى والرشاد- الإمام محمد بن يوسف الصالحى- لجنة إحياء التراث- القاهرة- 1992-1413.
49. السنة، لأبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك، لابن مخلد الشيباني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامية (1419هـ-1998م).
50. سنن ابن ماجه: أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد عبد الباقي. دار الكتب العلمية - بيروت.
51. سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث - إعداد: عزة عبید الدعاس، وعادل السيد- دار الكتب العلمية - ط1 (1388هـ).
52. سنن البيهقي: أبي بكر أحمد بن الحسين- دار المعرفة -
53. سنن الدارمي: أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي - دار الكتب العلمية.
54. سنن النسائي. تحقيق: أبي غدة - دار البشارة الإسلامية- بيروت - ط2 (1406هـ - 1986م).
55. سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي - مؤسسة الرسالة - الطبعة الرابعة 1406هـ - 1986م.
56. السيرة النبوية - ابن كثير - دار إحياء التراث+ طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع- 1396هـ - 1971م.
57. السيرة النبوية: لابن هشام - مطبعة البابي الحلبي - 1355هـ - 1963م.

58. السيرة النبوية: للدكتور المرتضى بن زيد المخطوري - مكتبة بدر
59. سيرة سيد المرسلين - جعفر سبحاني - دار الأضواء - ط 2.
60. شرح التجريد في فقه الزيدية، للإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني - مركز التراث والبحوث اليمني - الطبعة الأولى - 1427هـ - 2006م.
61. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك - محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني - دار الكتب العلمية - بيروت 1411هـ.
62. شرح المواهب اللدنية - الزرقاني - المطبعة الأزهرية - القاهرة - ط 1.
63. شرح معاني الآثار: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي. تحقيق: محمد زهري النجار، ومحمد سيد جاد الحق - عالم الكتب - الطبعة الأولى 1414هـ - 1994م.
64. شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد - دار مكتبة الحياة بيروت 1963م. تحقيق: حسن تميم. وكذلك طبعة دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.
65. شعب الإيمان: للبيهقي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - 1410هـ 1990م. تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول.
66. شفاء الأوام: الأمير الحسين بن بدر الدين - جمعية علماء اليمن - ط 1 (1416هـ - 1996م).
67. صحيح ابن خزيمة. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية 1412هـ - 1992م.
68. صحيح البخاري: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: مصطفى البغا - دار ابن كثير - ط 3 (1407هـ - 1987م).
69. صحيح مسلم - دار إحياء التراث - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
70. الصحيح من سيرة النبي ص - جعفر العاملي - دار الهادي - ط 4.
71. الطبقات الكبرى: لابن سعد - دار الفكر.
72. عيون الأثر - ابن سيد الناس - مكتبة دار التراث - ط 1.
73. الغدير في الكتاب والسنة والآداب، للشيخ عبد الحسين الأميني - دار الكتاب العربي - بيروت - ط (1397هـ - 1977م).
74. فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد ابن علي بن محمد بن حجر القسطلاني - دار الفكر.
75. فرائد السمطين: للخراساني - مؤسسة المحمودي - بيروت ط 1 - 1398هـ.
76. الفردوس بمأثور الخطاب: لأبي شجاع شيرويه الديلمي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م. تحقيق: السعيد زغلول.

77. فضائل الصحابة: لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - دار ابن الجوزي - الطبعة الثانية 1420 هـ - 1999 م. تحقيق: وصي الله بن محمد عباس.
78. فقه السيرة - محمد الغزالي - دار الكتب الحديثة.
79. فقه المرتضى الإمام محمد بن يحيى بن الحسين (عليهم السلام). المكتبة الشاملة.
80. الكامل في التاريخ: لأبي الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الرابعة 1403 هـ - 1983 م.
81. الكشف عن حقائق التنزيل: محمود بن عمر الزمخشري - دار الريان - ط3 (1407 هـ - 1987 م).
82. كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب - الحافظ أبي عبد الله محمد بن يوسف القرشي - تحقيق محمد هادي الأميني - منشورات المطبعة الحيدرية - النجف - ط2 1390 هـ 1970 م.
83. الكفاية في علم الرواية - أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي - المكتبة العلمية - المدينة المنورة.
84. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: للعلامة علاء الدين المتقي الهندي - مؤسسة الرسالة - بيروت 1409 هـ - 1989 م.
85. لسان العرب - ابن منظور - دار صادر - بيروت - ط1.
86. لواعج الأنوار: السيد العلامة مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي رحمه الله - مكتبة التراث الإسلامي - الطبعة الأولى 1414 هـ - 1993 م.
87. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي - دار الكتاب العربي - الطبعة الثالثة 1407 هـ - 1987 م - بيروت.
88. مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم - دار الحكمة اليمانية - 1422 هـ - 2002 م.
89. مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى محمد بن يحيى الهادي - مكتبة التراث الإسلامي - اليمن - صعدة - الطبعة الأولى 1423 هـ - 2002 م.
90. مجموع كتب ورسائل الإمام زيد - مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية - صعدة - 1422 هـ - 2001 م.
91. المجموعة الفاخرة: للإمام الهادي يحيى بن الحسين - دار الحكمة اليمانية.
92. محاسن الأزهار في مناقب العترة الأطهار، حميد بن أحمد المحلي الوادعي الهمداني، تحقيق: حمود الأنوموي، وعبد الله عامر - مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية - صعدة - ط1 (1421 هـ - 2002 م)
93. المحاضرة الخامسة للسيد عبد الملك بدر الدين بمناسبة المولد النبوي عام 1439 هـ.
94. المحاضرة الرابعة للسيد عبد الملك حفظه الله بمناسبة المولد النبوي عام 1439 هـ.
95. محمد رسول الله (ص) - محمد رضا - دار الكتب العلمية - ط1.
96. المراتب في فضائل أمير المؤمنين سيد الوصيين، أبو القاسم إسماعيل بن أحمد البستي المعتزلي، تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي - ط1 (1421 هـ).

97. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تأليف: أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، دققها ووضعها وضبطها: يوسف أسعد داغر - دار الأندلس - بيروت - ط5 (1983م).
98. المستدرک علی الصحیحین: الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - دار الكتاب العربي - بيروت - 1335هـ.
99. مسند أبي يعلى الموصلي - دار الثقافة العربية - ط2 (1413هـ - 1993م).
100. مسند أحمد بن حنبل. تحقيق: صدقي العطار - دار الفكر - المكتبة التجارية - بيروت - ط2 (1414هـ - 1994م).
101. مسند الإمام زيد بن علي - دار مكتبة الحياة - بيروت - 1966م.
102. مسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري: ترتيب أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوريثاني - مكتبة مسقط - سلطنة عمان - ط1 (1415هـ - 1994م).
103. مسند الروياني - محمد بن هارون الروياني - تحقيق أيمن علي أبو يمان - مؤسسة قرطبة - 1416هـ - القاهرة.
104. المصايح الساطعة الأنوار (تفسير أهل البيت): جمع وتأليف العلامة عبد الله بن أحمد الشرفي - مكتبة التراث - صعدة - الطبعة الأولى 1418 - 1998م.
105. المصايح: لأبي العباس الحسني - مؤسسة الإمام زيد بن علي - ط1 (1421هـ - 2001م).
106. المصنف: لابن أبي شيبة - دار التاج - ط1 (1409هـ - 1989م).
107. المصنف: للحافظ أبي بكر عبد الرزاق الصنعاني - المكتب الإسلامي - ط2 (1403هـ - 1983م). تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
108. المعجم الأوسط: للطبراني - منشورات دار الحرمين 1415هـ - 1995م.
109. معجم البلدان: ياقوت الحموي - دار الفكر - الطبعة الثانية 1995م.
110. المعجم الكبير: للطبراني. تحقيق: حمزة عبد المجيد - الزهراء الحديثة 1984م.
111. المغازي - الواقدي - مؤسسة الأعلمي.
112. مفاتيح الغيب: تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير: للإمام محمد الرازي فخر الدين (544-604هـ) - قدم له خليل محي الدين الميس - دار الفكر - بيروت - لبنان - ط (1993م - 1414هـ).
113. من كلمة للسيد عبد الملك بدر الدين بمناسبة المولد النبوي عام 1440هـ.
114. مناقب الإمام علي بن أبي طالب، لأبي الحسن علي بن محمد الشافعي الشهير بابن المغازلي - الطبعة الثانية 1412/2هـ - 1992م.
115. مناقب أمير المؤمنين (ع)، لمحمد بن سليمان الكوفي، تحقيق: محمد باقر المحمودي - مجمع إحياء الثقافة الإسلامية - الطبعة الأولى 1412هـ - إيران - قم.

116. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تأليف: أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط1 (1412هـ - 1992م).
117. المواهب اللدنية - ابن حجر العسقلاني - دار الكتب العلمية - ط 1.
118. الموطأ، للإمام مالك بن أنس الأصبحي - دار الريان للتراث - القاهرة - الطبعة الأولى 1408هـ - 1988م.
119. الميزان تفسير القرآن، للعلامة محمد حسين الطباطبائي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية 1390هـ - 1971م.
120. نهج البلاغة: لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام - ط1 - دار المعارف.
121. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين - محمد الخضري - دار الفكر.

...